قصيدة المتنبى

(الرفق بالجانى عتاب)

رؤية بلاغية نقدية

الدكتور

إبراهيم حسن أحمد

مدرس البلاغة والنقد فى جامعة الأزهر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان وكرمه بنعمة البيان ، والصلاة والسلام على أفصح ولد عدنان، وعلى آله وصحبه مصابيح الدجى، وأئمة البيان.....، وبعد:

فإن تفقد الأبنية الشعرية ودراستها دراسة بلاغية تذوقية من مقاصد العمل البلاغى، وعليه ، فالشعر معدن البلاغة، وعليه المعول فيها، فهو "مجنى ثمر العقول والألباب، ومجتمع فِرَق الآداب ، والذى قيد على الناس المعانى الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسل بين الماضى والغابر ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد حتى ترى به آثار الماضين مخلدة فى الباقين، وعقول الأولين مردودة فى الآخرين، وترى لكل من رام الأدب وابتغى الشرف وطلب محاسن القول والفعل منارا مرفوعا وَعَلَما منصوبا وهاديا مرشدا ومعلِّما مسددا، وتجد فيه للنائى عن طلب المآثر والزاهد فى اكتساب المحامد داعيا ومحرضا، وباعثا ومحضضا، ومذكرا ومعرفا، وواعظا ومثقفا.."[1]

والناظر فى التعبيرات الجيدة، والأساليب الراقية يدرك مواطن الجمال بها، فينموا بذلك ذوقه، وترقى أحاسيسه، وتسمو مشاعره.

---

(١) عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، تحقيق الشيخ/ محمود شاكر، صـــ١٦، مطبعة الخانجى.

والمتنبي أحد أئمة البيان فى عصور العربية، يقول عنه أبو منصور الثعالبى: "هو نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر فى صناعة الشعر"[١]، ومكانته بين شعراء العرب عالية، فهو ثالث ثلاثة أشاد بهم النقاد فى العصر العباسى، وقال عنهم ابن الأثير: أبو تمام والبحترى والمتنبى هم الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشعر ومستحسناته، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء،...، وعلى الحقيقة فإن المتنبى خاتم الشعراء، ومهما وصف فهو فوق الوصف، وفوق الإطراء[٢]

وقال عنه الشيخ / محمود شاكر: "شاعر فذ من شعراء العربية لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان ألا وهو أبو الطيب المتنبى واحد الشعراء الذى جاء فملأ الدنيا وشغل الناس"[٣]

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة: (قصيدة المتنبى ــ الرفق بالجانى عتاب ــ رؤية بلاغية نقدية) فمما لا شك فيه أن توجيه دارس البلاغة نحو النصوص السامية، والتعبيرات الراقية ليتعرف فى ضوئها على مسائل البلاغة فيه إثراء للشواهد البلاغية، وإصلاح للدرس البلاغى.

---

(٢) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، جـ١، صـ١٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣)ينظر: المثل السائر، تحقيق د/ أحمد الحوفى، د/ بدوى طبانة، جـ٣، ص٢٢٦،٢٢٧،٢٢٨، نهضة مصر.

(٤) المتنبى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، ص٣١٢، مطبعة المدنى القاهرة، وينظر: د/ إبراهيم الخولى، لزوميات أبى العلاء المعرى، ص٢، دار الأدب الإسلامى.

أما عن سبب اختيار هذه القصيدة (ترفق أيها المولى عليهم) فلأنها أولا من درر المتنبى المشرقة المتلألئة فى تاج سيف الدولة الحمدانى، والمتنبى "يعرف يقينا بصر صاحبه سيف الدولة بالأدب والشعر، فحمله ذلك على الإجادة والتبصر وتقليب المعانى واختيارها، واختيار أثوابها من الألفاظ واجتبائها، وكان ذلك من أبى الطيب؛ لما فى نفسه من الكبرياء والعظمة؛ إذ لو لم يفعل ذلك لعلا عليه فى نظر سيف الدولة رجل غيره من الشعراء، أو لسواه به، وصاحبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه إلى سيف الدولة غيره من الشعراء فهل يرضى بالمساواة..."[١]

وثانيا: لأن هذه القصيدة فيها من الأغراض ما اختص المتنبى بالإجادة فيه ففيها المدح والوصف والحكمة، ومدح المتنبى لسيف الدولة لم يكن لغرض التكسب بالشعر وأكل الخبز من قوافيه ومعانيه، وإنما صدر عن حب صادق، فقد وجد المتنبى "آماله فى آمال سيف الدولة، وآراءه فى آرائه، وعواطفه فى عواطفه، فألقى فى مدح الرجل كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه، وألغى ذكر نفسه، وراح يمدح الرجل ويصفه، ويصف حروبه وغزواته بأبدع ما أتى به من البيان[٢]

وهذه القصيدة وصف فيها المتنبى معركة حربية بين سيف الدولة وبنى كلاب بعد أن شاهدها شأن المراسلين الحربيين فى الجيوش الحديثة،

---

(١) المتنبى: ص٣٢٤.

(٢) ينظر: المتنبى، ص٣١٥ــ٣٢٧.

والمتنبى كما يقول ابن الأثير[١]: اختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال، فإذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها.

أما حكمة المتنبى فهى مبثوثة فى تلك القصيدة، نابعة عن أصالة، وناتجة عن تجربة وخبرة، ومن هنا ترددت على كل لسان، واستقرت فى النفوس مرتاحة إليها ضنينة بها، وليس لأبى الطيب مثيل فى هذا اللون من الشعر فقد "حظى فى شعره بالحكم والأمثال"[٢].

ومن هنا يأتى سبب اختيار هذه القصيدة؛ فقد حوت مدحا لسيف الدولة بما فيه من صدق العاطفة، ووصفا للقتال الذى اختص المتنبى بالإبداع فيه، وحِكَمًا حظى بها شعر المتنبى، هذا فضلا عن أن هذه القصيدة قالها الشاعر فى أواخر حياته[٣]، وقد لان له الشعر وانطاعت له قوافيه وراضت شوارده، فهذه القصيدة من فرائد شعر المتنبى فقد حازت الشهرة كما قال ابن رشيق[٤]، وحازت الحسن كما قال الثعالبى فى تعليقه على أبياتها: "هذا كلام ما لحسنه غاية"[٥].

---

(٣) المثل السائر، جـ٣، ص٢٢٨.

(٤) المثل السائر: جـ٣، ص٢٢٨.

(١) القصيدة قيلت سنة ٣٤٣هـ ،وتوفى الشاعر سنة ٣٥٤هـ.

(٢) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، جـ١، ص٦١،دار الجيل، بيروت.

(٣) يتيمة الدهر: جـ١، ص٤٨.

ومنهج البحث قائم على تحليل القصيدة تحليلا بلاغيا يبرز ما فيها من محاسن النظم، من حيث جودة الألفاظ وجزالتها، وقوة الأساليب وفخامتها، ودقة النظم وإحكامه، وجمال التصوير وبراعته، ثم التوقف أمام المآخذ التى يمكن أن تؤخذ على المتنبى فى بناء قصيدته.

هذا: وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وتعليق ختامى، وثبت بأهم المصادر والمراجع، وفهرس.

المقدمة : ذكرت فيها قيمة البحث، وهدفه، ومنهجه.

التمهيد : ذكرت فيه نبذة عن حياة المتنبى، وشعره، والمناسبة التى قيلت فيها القصيدة، وعرضاً للقصيدة.

المبحث الأول : مدح وإشادة بشجاعة سيف الدولة.

المبحث الثانى : وصف المعركة بين سيف الدولة وبنى كلاب.

المبحث الثالث : الاستعطاف لبنى كلاب.

التعليق الختامى : وفيه أهم النتائج.

المراجع .

الفهرس .

وبعد: فلا أزعم أننى قد بلغت فى بحثى هذا درجة الكمال، فالكمال لله وحده، ولكنى اجتهدت قدر طاقتى، والله أسأل أن يقيل عثراتى، ويغفر ذلاتى وهو الهادى إلى سواء السبيل.

إبراهيم حسن أحمد

تمهيد
نبذة عن حياة المتنبى وشعره

نسبه :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفىّ الكندى، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ فى محلة تعرف بـ (كندة) ، ولذلك نسب إلي هذا الحى أو إلى الكوفة ، فقيل له الكوفىّ الكندىّ ، وليست نسبته الأخيرة إلى قبيلة كنده كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكنها إلى ذلك الحى الذى ولد فيه[١]

ولا توجد معلومات وافية عن أسرة المتنبى، والذى جاء فى الكتب أن أباه كان سقّاء للماء بالكوفة، وكان يُعرف بِعيدان السّقّاء[٢]، وقد فند الشيخ/ محمود شاكر ما قيل من أن أباه كان يسقى الماء على بعير له بالكوفة، وعزاه إلى عداوة الأعداء وتحامل الرواة وحسد الشعراء[٣].

أما أمه فلم يعرف عنها شيء، ويبدو أنها ماتت وهو صغير[٤]، أما جدته لأمه فهى هَمَزَانِيّة صحيحة النسب، وقد احتضنته وأحبته حبا عظيما، وقد خُصّت من بين أسرته برثائه وتقديره[٥].

---

(١) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق/ إحسان عباس، جـ١، ص١٢٠، ١٢٣، دار صادر، بيروت، والصفدى: الوافى بالوفيات، تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، وتركى مصطفى، جـ٦، ص٢٠٨، دار إحياء التراث العربى، بيروت، وابن حجر العسقلانى: لسان الميزان، جـ١، ص١٥٩، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الدكن، الهند.

(٢) ينظر: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٢٤، ولسان الميزان: جـ١، ص١٦٠.

(٣) ينظر: المتنبى، ص١٣٨ـ١٦١.

(٤) ينظر: المتنبى، ص١٦٣، ١٦٤.

(٥) ينظر: المتنبى، ص١٦٣.

ولم يكن المتنبى يُعنى بأن يعرف عنه إلا أنه الشاعر الذى لا يفخر بقبيلة إنما تفخر به القبيلة التى هو منها، فهو القائل:

لا بقومى شَرُفت بل شَرُفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى[١]

وقال فى رثاء جدته لأمه :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخمَ كونك لى أما

أما إطلاق لقب المتنبى علي أبى الطيب فقيل: لأنه ادعى النبوة، وقيل: لأنه قال: أنا أول من تنبأ بالشعر، وقيل غير ذلك، وهذا أصح[٢]، وقد انتهى النقاد إلى أن هذا اللقب رماه به أعداؤه ولم يرضه، فمن أقواله: "لا أرضى بهذا ولا أقدر على دفع من يدعونى به"[٣]

نشأته وحياته :

نشأ أبو الطيب على طلب العلم والأدب، وقد عرف منذ طفولته بالذكاء وقوة الحفظ، وقد اتصل بالعلماء والأدباء، وحفظ غريب اللغة وأشعار الجاهليين وغيرهم، واشتهر بالفصاحة والبلاغة، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرا، فبدأ فى نظم الشعر، ويؤكد الرواة أن المتنبى "طلب الأدب وعلم العربية، ونظر فى أيام الناس، وتعاطى قول الشعر منذ حداثته حتى بلغ الغاية التى فاق فيها أهل عصره، وطاول شعراء وقته"[٤] .

---

(١) ديوان المتنبى

(٢) ينظر: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٢٢.

(٣) لسان الميزان: جـ١، ص١٦١، وينظر المتنبى: ص٢١٥ـ٢٣٦.

(٤) ينظر: لسان الميزان: جـ١، ص١٥٩، وينظر المتنبى: ص٢٣٩.

أحسّ المتنبى منذ نعومة أظافره بطاقاته الفنية تتفجر ومعها نفس أبية وطموح إلى معالى الأمور، ومن أجل ذلك تعددت رحلاته إلى أمراء الحواضر؛ طلبا للمجد والسؤدد ورفعة الشأن، لكن أمانيه لم تتحقق، فقرر الذهاب إلى بادية السماوة فدعا إلى بيعته قوما من مريديه، يقول الثعالبى: "إنه بلغ من كبر نفسه، وبعد هِمّته أنه دعا قوما من رائشى نبله[١] على الحداثة فى سنه والغضاضة من عوده، وحين كاد يتم أمر دعوته تأدى خبره إلى والى البلدة، ورُفع إليه ما هم به من الخروج، فأمر بحبسه وتقييده"[٢] .

لقد كان حبس المتنبى كما ذكر الثعالبى بسبب محاولته الثورة، والخروج على الوالى وليس لادِّعائه النبوة كما زعمت بعض الآراء، وهو ما أنكره المتنبى ونفاه عن نفسه[٣] .

لقد عاش المتنبى فى فترة كانت فيها الدولة العباسية نهبا مقسما ورأى فى سكان البادية سذاجة فى الطباع فجذبهم إليه بسحر بيانه، وقوة عارضته، ولم يجد أعداؤه تهمة يتخلصون بها منه إلا أن يلصقوا به تهمة إدعاء النبوة، وسجن شاعرنا، واستمر فى سجنه حتى استعطف أمير حمص فأطلقه وخرج ليستأنف نشاطه فى سبيل تحقيق مآربه، واستمر متنقلا بين

---

(١) (رائشى نبله): كناية عمن يقوى بهم ساعده. تقول: راش النبل يريشه: إذا لزق فيه الريش ليقوى، لسان العرب: مادة (ريش)،جـ٣، ص١٧٩١، دار المعارف.

(٢) يتيمة الدهر: جـ١، ص١٤١.

(٣) ينظر: لسان الميزان: جـ١، ص١٦٠.

ولاة الشام وأمرائها يمدحهم ولا يستفيد إلا النذر اليسير على كثرة ما بالغ واحتفل[١] .

وأراد الله ــ تعالى ــ للشاعر الكبير أن يلقى ممدوحه الكبير، فأحسن سيف الدولة استقبال المتنبى وأحله المحل الرفيع، ورأى المتنبى فى سيف الدولة الأمير العربى الذى يجدر بدرره الغوالى، وكانت الحرب مشبوبة بين الأمير وبين البيزنطيين والبدو الذين لم تهدأ لهم ثائرة، فترنم المتنبى بانتصارات الأمير، ونظم فى كل ملابساته شعرا خالدا يصور رحلاته ويصف حروبه ومعاركه، ولا شك أن تلك الصلة بين شاعرنا وأميره كانت مُذكِية لعبقريته، ومذيعة لصيته، وأعانته على الدخول فى زمرة الخالدين[٢] .

لقى المتنبى عند سيف الدولة المال والجاه والكرامة، وعاش فى مجلسه الذى يفيض علما وأدبا، والتقى هناك بالعلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء، وبلغ من حب الأمير له أن أخمل المتنبى كل أثير لديه، وما زالت تلك الصلة قائمة بين الأمير وشاعره يجنى المتأدبون ثمارها اليانعة وقطوفها الدانية حتى دسّ له بعض الحاقدين عند سيف الدولة، فتقشع ظل تلك النعمة ، وحدثت جفوة بين الأمير وشاعره، فغضب عليه، واضطر المتنبى ــ بعد أن فشل فى الإبقاء على حظوته لدى الأمير ــ إلى ترك حلب فغادرها إلى مصر حيث وصل ما بينه وبين كافور، وغمره

---

(١) ينظر: المتنبى، ص٢٣٨.

(٢) ينظر: الوافى بالوفيات، جـ٦، ص٢٠٨، ٢٠٩.

بمدائحه، وفى مصر عاد الأمل من جديد يداعب المتنبى فى أن يستعلى على ولاية أو إمارة، وقد وعده كافور ثم تنكر له، ووقع بينهما جفاء خشى أبو الطيب آثاره، فغادر مصر وهجا كافورا هجاء مرا، وعاد إلى وطنه الأول الكوفة بعد جهد وعناء[١]

لقى أبو الطيب فى العراق مضايقات؛ لترفُّعه عن مدح من لا يستحق مدحه، فغادر العراق إلى فارس سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، فلقى حفاوة وتكريما من عضد الدولة بن بويه، أحد أمراء بنى بويه المتغلبين على العراق وفارس والموصل، ولكنه لم يطل مكثه فى فارس، فقدر فى العام نفسه أن يعود إلى العراق، وفى مكان يُدعى (دير العاقول) فاجأه بعض الأعراب ممن يقطعون الطريق، ودارت بين المتنبى وقطاع طريقه رحى معركة بذل فيها جهد طاقته، "فلما رأى الغلبة فر فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار أبدا، وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والضرب والطعن والقرطاس والقلم[٢]

فكر راجعا، فقتل، وكان سبب ذلك هذا البيت"[٣]، وكان مقتله يوم الأربعاء لست بقين، وقيل لثلاث بقين، وقيل لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة[٤]

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٢٢.

(٢) ديوان المتنبى ج ٣ /٣٩٠

(٣) العمدة: جـ١، ص٧٥، وينظر: وفيات الأعيان: جـ١، ص١٢٣.

(٤) ينظر: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٢٣.

خصائص شعره :

شعر المتنبى صورة صادقة لهذا العبقرى وعصره، وقد صدر عن أصالة وترجم عن شخصية قائله ونفسيته وصفاته، فالمتنبى طموح جريء حريص على تحقيق ما تصبو إليه نفسه من مكانة مادية ومعنوية، فهو ـــ كما جاء فى العمدة ـــ "كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، وكالشجاع الجريء يهجم على ما يريده ولا يبالى ما لقى ولا حيث وقع"(١) .

لقد شغل شعر المتنبى معاصريه والناس من بعده فهو فى الذروة من البلاغة، وله حظه الأوفى من ضخامة المعانى ومتانة المبانى، وفى شعره من الفلسفة والحكمة ما مضى على كل لسان وجرى مجرى الأمثال....، وقد جال فى كل غرض من أغراض الشعر فأجاد وأبدع، وبخاصة فى الحكم والحماسة والمديح والفخر والوصف والعتاب، غير أن المديح هو اللون الغالب على شعره، فقد طوّع عبقريته للاحتفال بهذا الغرض، وبلغ فيه الغاية من الإحسان والتجويد، وخلّف وصف المعارك الحربية فنا مستقلا لم يسبق إليه ولم يلحق فيه(٢) .

وشعر المتنبى ذو طابع خاص يميزه فى معانيه وأخيلته وألفاظه وأساليبه وموسيقاه، فمعانيه تتسم بالقوة والفخامة والتركيز، وخياله يمتاز بالخصب وإحكام الصورة وقوة التأثير، وأما ألفاظه فجزلة، وعباراته

---

(١) العمدة، جـ١، ١٣٣.

(٢) ينظر: د/ محمد كامل الفقى، من عيون الأدب، ص٣١، ٣٢.

وأساليبه رصينة، وموسيقاه قوية الجرس تلائم روحه وتتفق مع طبيعته دون اعتماد على الصنعة والزخرف[١] .

إن ما خلفه المتنبى من ثروة شعرية بلغ ذروة الخلود فى الأدب العربى، ولقد بث المتنبى فى الأجيال المتعاقبة من سديد رأيه وحكمته، واستمتع عشاق الأدب على يديه بالمعنى البديع والنظر الحلو والكلمة الرشيقة والحكمة السديدة، ولم يجد شاعر من شعراء العرب ما وجد أبو الطيب من الاحتفال بأخباره وأشعاره، وإنما ارتقى أبو الطيب إلى تلك المنزلة الأدبية بفضل نبوغه الشعرى النادر، وعبقريته التى عزّت على سواه فى عصر كان يموج بالمجيدين من الشعراء.

المناسبة التى قيلت فيها القصيدة:

المتنبى شاعر له مكانته الفريدة بين شعراء العربية، وقد اتصل بسيف الدولة اتصال شاعر بأمير، ولكنه لم يلبث أن صار اتصال إعجاب وتقدير، وتوطدت العلاقة بينهما حتى أصبح المتنبى يصاحب سيف الدولة فى كل رحلاته ويشهد معه وقائعه بأعدائه، وها هو ذا قد حضر معه معركة دارت بينه وبين بنى كلاب فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٣هـ ، "وقد كان سيف الدولة اصطنع بنى كلاب وأدناهم وآمن سربهم، فقهروا العرب وعلت كلمتهم إلى أن بدت منهم جفوة أحفظته، فأسرى إليهم وأوقع بهم، وملك حُرَمَهم وأموالهم، ثم صفح عنهم وَكَرُم، وجمع الحُرَمَ

---

(١) ينظر: المتنبى، ص٢٤٥، ٢٤٧.

ووكل بهن الخدم، وأفضل عليهن وأحسن إليهن"[١]، فانفعل المتنبى بما رأى، وأنشد قصيدته هذه؛ ليسجل بها تاريخ الأمير العربى الظافر، ويصف المعركة التى دارت أمامه، ويشيد بعظمة سيف الدولة الحمدانى ويستعطفه على بنى كلاب.

عرض القصيدة[٢]

بغيرك راعيا عبث الذئاب		وغيرك صارما ثلم الضراب
وتملك أنفس الثقلين طرا		فكيف تحوز أنفسها كلاب
وما تركوك معصية ولكن		يعاف الورد والموت الشراب
طلبتهم على الأمواه حتى		تخوف أن تفتشه السحاب
فبت لياليا لا نوم فيها		تخب بك المسومة العراب
يهز الجيش حولك جانبيه		كما نفضت جناحيها العقاب
وتسأل عنهم الفلوات حتى		أجابك بعضها وهم الجواب
فقاتل عن حريمهم وفروا		ندى كفيك والنسب القراب
وحفظك فيهم سلفى معد		وأنهم العشائر والصحاب
تكفكف عنهم صم العوالى		وقد شرقت بظعنهم الشعاب
وأسقطت الأجنة فى الولايا		وأجهضت الحوائل والثقاب

(١) يتيمة الدهر: جـ١، ص٤٧، ٤٨، وينظر: العمدة: جـ١، ص٦٠، ٦١، وديوان المتنبى: ص٣٨١، المكتبة الثقافية، بيروت.

(٢) القصيدة فى ديوان المتنبى: ص٣٨١ ــ ٣٨٤.

وعمرو فى ميامنهم عمور		وكعب فى مياسرهم كعاب
وقد خذلت أبو بكر بنيها		وخاذلها قريظ والضِّباب
إذا ما سرت فى آثار قوم		تخاذلت الجماجم والرقاب
فعدن كما أخذن مكرمات		عليهن القلائد والملاب
يثبنك بالذى أوليت شكرا		وأين من الذى تولى الثواب
وليس مصيرهن إليك شينا		ولا فى صونهن لديك عاب
ولا فى فقدهن بنى كلاب		إذا أبصرن غرتك اغتراب
وكيف يتم بأسك فى أناس		تصيبهم فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم		فإن الرفق بالجانى عتاب
وإنهم عبيدك حيث كانوا		إذا تدعوا لحادثة أجابوا
وعين المخطئين هم وليسوا		بأول معشر خطئوا فتابوا
وأنت حياتهم غضبت عليهم		وهجر حياتهم لهم عقاب
وما جهلت أياديك البوادى		ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مولده دلال		وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم		وحل بغير جارمه العذاب
فإن هابوا بجرمهم عليا		فقد يرجو عليا من يهاب
وإن يك سيف دولة غير قيس		فمنه جلود قيس والثياب
وتحت ربابه نبتوا وأثوا		وفى أيامه كثروا وطابوا
وتحت لوائه ضربوا الأعادى		وذل لهم من العرب الصعاب
ولو غير الأمير غزا كلابا		ثناه عن شموسهم ضباب

ولاقى دون ثأيهم طعانا		يلاقى عنده الذئب الغراب
وخيلا تغتذى ريح الموامى		ويكفيها من الماء السراب
ولكن ربهم أسرى إليهم		فما نفع الوقوف ولا الذهاب
ولا ليل أجن ولا نهار		ولا خيل حملن ولا ركاب
رميتهم ببحر من حديد		له فى البر خلفهم عباب
فمساهم وبسطهم حرير		وصبحهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة		كمن فى كفه منهم خضاب
بنو قتلى أبيك بأرض نجد		ومن أبقى وأبقته الحراب
عفا عنهم وأعتقهم صغارا		وفى أعناق أكثرهم سخاب
وكلكم أتى مأتى أبيه		وكل فعال كلكم عجاب
كذا فليسر من طلب الأعادى		ومثل سراك فليكن الطلاب

المبحث الأول
مدح وإشادة بشجاعة سيف الدولة

١ــ بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب

بدا المتنبى قصيدته بهذا المطلع الرائع الذى يصور فيه قوة سيف الدولة الحمدانى، وشدة بأسه، وأنه مهاب الجانب بحيث لا يجرؤ أحد على مخالفة أمره أو الخروج عن طوعه، لأنه ذو بأس وشكيمة وموضع خشية ومهابة، فهو "يريد: إذا كنت الحافظ للرعية لم يقدر عليهم أحد بضر؛ لخوفهم منك، وبغيرك يعبث الذئاب فى حال رعيه وسياسته، ويثلم الضراب غيرك فى حال قطعه، وإذا كنت أنت الراعى لم يعبث الذئاب بسوامك، وإذا كنت أنت الصارم لم يثلمك الضراب"(١)

وإذا أمعنت النظر فى هذا البيت وجدت أن لفظة (الذئاب) أريد بها الثائرين من بنى كلاب، والعلاقة بين الذئاب والثائرين هى المشابهة فى السطو وإثارة القلائل والتمرد، وقد أصاب المتنبى أيما إصابة فى الإتيان بتلك الصورة البيانية، لأن الثائرين على الأمير أشبه ما يكونون بالذئاب التى تسطو على الآمنين فتروعهم، وتبث الذعر فيهم، وتعبث بأمنهم ونظام حياتهم، ولعلك تلمح مدى هذا السطو من لفظ (ذئاب) الوارد بصيغة الجمع؛ إشارة إلى استفحال خطر هؤلاء الثائرين، وكثرة إفسادهم.

---

(١) العكبرى: التبيان فى شرح الديوان، تحقيق، د/ كمال طالب، جـ١، ص٨٨، وينظر: عبد الرحمن البرقوقى: شرح ديوان أبى الطيب المتنبى، جـ١، ص٢٠٤.

وتكتمل جوانب تلك الصورة البيانية فى بنية النظم الذى سلكت فيه، حيث تقديم الجار والمجرور والحال (بغيرك راعيا) على الفعل والفاعل (عبث الذئاب)، وهذا التقديم مما يتحقق به التأكيد والتقوية التى هى غرض المتنبى من مدحه، ومن هنا قدم لفظ (غير) مضافا إلى كاف الخطاب مشفوعا بالحال.

وهذا اللفظ (غير) يلزم تقديمه إذا أريد به الكناية عما أضيف إليه بدون تعريض، كقولنا: (غيرك لا يجود)، فالمراد: أنت تجود، استعملت (غير) مكنى بها عما أضيفت إليه دون تعريض بغيره أو إيماء إلى أن هذا الغير لا يفعل مثلما يفعل المتحدَّث عنه، وتقديم (غير) إنما يكون لازما عندئذ؛ لأن الكناية أبلغ من التصريح وآكد، فهى كدعوى الشىء بدليل وبينة، والدعوى المشفوعة بالبينة والمصحوبة بالبرهان أقوى وآكد من الدعوى المرسلة الخالية من الدليل العارية من البينة، فلما كان الغرض هو التأكيد والتقوية لزم أن يتقدم لفظ (غير)؛ لأن تقديمه يحقق التأكيد ويفيد التقوية[١]

ولزوم التقديم إنما هو لزوم بلاغى مرجعه إلى استعمال العرب، وإلى كون التقديم أعون على تحقيق الغرض المقصود، ولذا ذكر عبد القاهر أن هذا التقديم كاللازم حيث يقول: "ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم (مثل، وغير) فى نحو قوله:

---

(١) ينظر: د/ محمد أبو موسى: خصائص التراكيب، ص١٨١، ١٨٢، د/ بسيونى فيود: علم المعانى، جـ١، ص١٦٦.

مثلك يثنى المزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غَربه[١]

وقول الناس: مثلك رعى الحق والحرمة، وكقول الذى قال له الحجاج: لأحملنك على الأدهم، يريد القيد، فقال على سبيل المغالطة: (مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب)"[٢]

فقد كنى المتنبى فى البيت المذكور عن الممدوح وهو:عضد الدولة بن بويه ، وقد كان يعزّيه فى عمته، كنى عنه بقوله: (مثلك)، ولم يرد بـــ(مثلك) شخصا آخر مماثلا له ، وقد صرح بهذا فى نفس القصيدة إذ قال:

ولم أقل مثلك أعنى سواك يا فردا بلا مشبه

فكان تقديم لفظ المثل لازما لزوما بلاغيا، أو كما قال عبد القاهر: كاللازم؛ ليفيد مع الكناية المبالغة فى التوكيد، وتقوية معنى المدح...[٣]

وفى قصيدتنا هذه كنى المتنبى عن سيف الدولة بقوله: (بغيرك) كنى عنه بضد هذا الحكم، وهو أنه لا يعبث الذئاب برعيته، ولم يرد المتنبى شخصا أخر مغايرا للممدوح يعبث الذئاب برعيته، بل أراد أن ينفى عنه أن يكون ممن يعبث الذئاب برعيتهم.

---

(١) الغَربُ: مسيل الدمع، والغَربُ: انهماله من العين، والغُرُوبُ: الدموع حين تخرج مـــن العـــين، لســـان العرب: مادة (غرب)، جـــ٥، ص٣٢٢٨.

(٢) دلائل الإعجاز: ص١٣٨، والبيت للمتنبى، فى ديوانه بشرح العكبرى، جـــ١، ص٢٢٤.

(٣) ينظر: د/ بسيونى فيود، علم المعان، جـــ١، ص١٦٧، والبيت للمتنبى فى ديوانه بشرح العكبرى، جـــ!، ص٢٢٤.

ويفهم من ذكر الذئاب، أنه أراد بقوله: (راعيا) أن يشبه حال الممدوح بحال الراعى فى حفظ الرعية وتدبير أمرها والذود عنها، ورد الشارد منها، فلما شبه الأمير بالراعى، استعار للثائرين الخارجين لفظ (الذئاب)؛ لتكتمل الصورة التى شكلت من التشبيه والاستعارة فى إبراز الغرض الذى يصبو إليه المتنبى من وصف الممدوح بأنه قوى له حزم وعزم فلا تعبث الذئاب برعيته.

وإذا ما نظرنا فى الشطر الثانى من البيت: (وغيرك صارما ثلم الضراب) وجدنا صورة بيانية رائعة أيضا، فقد شبه المتنبى ممدوحه بالصارم وهو السيف البتار فى القوة والمضاء، وفى هذا إشارة إلى شدة سيف الدولة وأن له عزيمة صادقة لا تؤثر فيها حوادث الدهر ولا قلاقل الثائرين ولا سطو المعتدين، فهو فى وجه أعدائه صارم متين لا يتثلم على كثرة الضراب، ولا ينحنى على شدة الثورات.

ويلحظ أن لفظ (غيرك) فى مطلع الشطر الثانى كنى به المتنبى عن الممدوح (سيف الدولة الحمدانى)، فلفظ (غير) أريد به الضمير الذى أضيف إليه، ودلالته عليه دلالة لزومية؛ ولهذا كان كناية، ولم يقصد الشاعر أن يعرض بإنسان آخر ليس على صفة المخاطب فى الحزم والعزم والمضاء. يقول الدكتور/ محمد أبو موسى: "وكان التقديم فى هذه الأساليب كاللازم؛ لأن التقديم يفيد التقوية....، وهذه الاستعمالات من

صور الكناية، والكناية يراد بها التوكيد فى آداء المعنى، ولهذا كان التقديم أنسب؛ لتتوافق دلالات الخصوصيات"[١] .

ولننظر إلى دور ألوان البديع، وأثرها الجميل فى مطلع القصيدة فنجد التصريع[٢] بين قوله: (الذئاب) فى نهاية الشطر الأول، و(الضراب) فى نهاية الشطر الثانى، وله قيمته فى تحقيق الانسجام والتناغم الذى يسترعى السمع ويحقق الإنصات، ويجذب المخاطبين من كل شواغلهم نحو المتكلم.

كما أن فى البيت تناسبا لفظيا بين (راعيا ــ الذئاب ــ صارما ــ ثلم ــ الضراب)، فهذه الألفاظ يتصور اجتماعها، ويستلزم بعضها بعضا.

ومن البين: أن كلا شطرى البيت يتضمن تشبيها مكثف العناصر يتشابك بعضها مع بعض، ففى الشطر الأول شبهت حالة سيف الدولة فى ولايته ومسئوليته فى الذود عن أهلها، وحمايتها من أى غزو يتهددها بحال الراعى الذى يتعهد قطيعا من الأغنام وتقع على عاتقه مسئولية حمايته من الذئاب والوحوش المفترسة، ثم يبنى على هذه الفكرة المستخلصة من التشبيه فكرة أخرى هى لب الموضوع وغايته التى ينشدها، وتلك هى الإعلاء من سلطان سيف الدولة، والإشادة بقوته المهيبة وسطوته

---

(١) خصائص التراكيب: ص١٨٢.

(٢) التصريع: هو استواء آخر جزء فى الصدر وآخر جزء فى العجز فى الوزن والإعراب والتقفية، ووقوعه فى الأشعار دليل على غزر مادة الشاعر، ينظر: تحرير التحبير، ص٣٠٥، الإيضاح، جـ٤، ص٩٨.

الشديدة التى تردع أى شخص يفكر فى الاعتداء على حماه فى الوقت الذى تنتهك فيه حرمات غيره من الولاة، ويجترئ الأعداء على مهاجمة حماهم دون مبالاة بالعواقب.

وفى الشطر الثانى شبه سيف الدولة فى قوته الحاسمة بالسيف الصارم، ويمضى المتنبى على نفس النسق فيضيف إلى ذلك مثل ما أضاف إلى التشبيه السابق، فيقول: إنه إذا كانت السيوف تثلم من كثرة الضرب فتصبح غير حادة ولا قاطعة، فإنك لا تضعف أبدا، ولا يعتريك الكلال وتبقى محتفظا بقوتك ومضائك، وهكذا ينطوى البيت بتركيبه وبناء عباراته على تشبيهين غائرين فى الأعماق لا يتأتى استشفافهما والنفاذ إليهما إلا بكثير من التأمل وإنعام النظر(١).

وبعد أن بين المتنبى صفتين عظيمتين من صفات سيف الدولة الحمدانى، وهما أنه متيقظ واع لا تسطو الذئاب على رعيته، وأنه قوى ذا حزم وعزم ومضاء لا تتأثر عزيمته بثورة ثائر، ولا تضعف قوته بخروج خارج، بعد أن بين المتنبى ذلك أكمل واسترسل فى ذكر صفات الممدوح فقال:

٢ــ وتملك أنفس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفسها كلاب

يقول: إن ممدوحه يملك أنفس الإنس والجن جميعا، وأنه موضع مهابة من الجميع، وما دام الأمر هكذا فبعيد جدا أن تحوز أنفسها قبيلة كلاب، وتفلت من قبضة الممدوح.

---

(١) ينظر: د/ شفيع السيد، التعبير البيانى رؤية بلاغية نقدية، ص٥٠، ٥١، مكتبة الآداب، القاهرة.

وأنت ترى أن الشاعر قد بالغ فى وصف ممدوحه بسعة الملك ونفاذ الأمر، فقد جعله يملك أنفس الثقلين، والمُلك: هو العزة والسلطان، والمُلك: احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به[١]، والنفوس: جمع نفس، وهى الروح، تقول: خرجت نفس فلان، أى: خرجت روحه[٢]، وبما أن الممدوح له القدرة على احتواء الثقلين، والاستبداد بأرواحهما، فكيف تحرز وتصون أنفسها قبيلة كلاب، وأنى لها أن تفلت من هذا الملك؟ إنه استفهام نفى واستبعاد، وقد يكون فيه تعجب وتهكم ممن يحاول تلك المحاولة.

ولك أن أن تلمح تلك المفارقة بين الفعلين (تملك ــ تحوز)، ففى جانب الممدوح جاء الفعل (تملك) بما فيه من معنى العزة والسلطان والاحتواء ونفاذ الأمر، وقد جاء بصيغة المضارعة إشارة إلى أن هذا الملك مستحكم فى الحال، وباق بنفس القوة فيما يستقبل من الزمان، وفى هذا سد لباب الأمل أمام من يتحفز للخروج والثورة متربصا ضعف سلطان الممدوح.

أما فى جانب قبيلة كلاب فقد أتى المتنبى بالفعل (تحوز) على جهة النفى بطريق الاستفهام، وقد أصاب فى اختيار تلك الكلمة المصورة لما أصاب هذه القبيلة من تمزق وتشتت وقتل على يد الممدوح، ذلك أن الحوز فى اللغة هو: الجمع، تقول حزت الشيء: جمعته وأحرزته، وكل من

---

(١) لسان العرب: مادة (ملك)، جـ٦، ص٤٢٦٦، ٤٢٧.

(٢) لسان العرب مادة (نفس)، جـ٦، ص٤٥٠٠.

ضم شيئا إلى نفسه من مال أو غير ذلك فقد حازه حوزا وحيازة[١]، وهذا يتناسب مع حال كلاب وقد فتك بهم الممدوح، وشتت جمعهم، وحاز نساءهم، وأخذ ما كان بأيديهم، فكيف تحوز أنفسها كلاب؟

ولك أن تستشف مدى أهمية النفوس فى المعارك وعند اللقاء، وأن الإنسان فى تلك الحال يدافع عن نفسه بكل ما أوتى من قوة، وأن دفاعه عن نفسه دفاع عن كل ما يملك، ومن هنا قدم المفعول على الفاعل ؛ اهتماما بالمقدم.

قلت: إن مدح المتنبى لسيف الدولة بأنه يملك أنفس الثقلين جميعا فيه مبالغة[٢] غير مقبولة؛ لأن الشاعر يدعى أن الممدوح بلغ حدا فى ملكه وجبروته ونفاذ أمره بحيث أصبح يملك أنفس الثقلينن ويتحكم فى أرواحهم، وهذا الحد الذى ادعاه الشاعر لهذا الوصف لا شك أنه مستحيل، فكيف يصف الممدوح بأنه يملك أنفس الإنس والجن جميعا؟، وهذه الصفة لا يوصف بها إلا الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ .

وهذا الادعاء مخالف للشريعة مخالفة شنيعة، وفيه خروج على تعاليم الدين، ومخالفة الشرع فيما جاء به من أصول وقواعد أكبر من مخالفة العقل والعادة معا، فما جاء به الشاعر غلو باق على استحالته فلا يجدى معه أى مقرب من المقربات.

---

(١) مختار الصحاح، مادة (حوز)،ص١٦٢.

(٢) المبالغة عند البلاغيين هى: أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا؛ لئلا يظن أنه غير متناه فى الشدة أو الضعف، ينظر: الإيضاح، جـــ٤، ص٤٧، شـــروح التلخـــيص: جـــ٤، ص٣٥٨.

وقد أكد الشاعر على تلك المبالغة بقوله (طرا) وهذا التأكيد أريد به دفع توهم عدم الشمول إذ لو قال: (وتملك أنفس الثقلين) بلا تأكيد لتوهم أن أحد الثقلين يقع فى نطاق سلطان الممدوح، وأن بعض القوم يملكهم الممدوح والبعض لا يملكهم، ولكن الشاعر لم يعتد بمن خرج عن نطاق سلطان الممدوح فأطلق الكل وأراد البعض على سبيل المجاز، فدفعا لهذا التوهم جاء التوكيد لإفادة الشمول والعموم، وهذا التأكيد مما يزيد فى إحالة الوصف المدعى.

وقد تكون كلمة (طرا) هنا غريبة بالنسبة للمؤكدات المعنوية مثل: (جميع ــ كل ــ عامة..) إلا أن غرابتها هنا هى الأنسب والأليق بغرابة المبالغة فى سعة سلطان الممدوح، وشمول ملكه لأنفس الثقلين، والمتنبى يمدح سيف الدولة، وهو من ذوى الطموح والمتطلعين إلى تحقيق الآمال العريضة، ولعل المتنبى فى مغالاته تلك كان يشبع رغبة فى نفسه؛ لأنه كان من أولئك الذين لا حد لطموحهم.

هذا: والمبالغة لما كانت على خلاف الأصل وقف منها النقاد ثلاثة مواقف نوجزها فى الآتى:

١ــ فريق منعها منعا قاطعا ذاهبا إلى أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى، وتبعث على التقوى، وتبين موضع الحسن والقبح فى الأفعال، وعمدتهم فى ذلك ما ورد عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ حيث

رفع من شأن شعر زهير؛ لأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه؛ ولهذا قالوا إن خير الشعر أصدقه وذكروا على ذلك دليلا هو قول حسان:

وإن أحسن بيت أنت قائله		بيت يقال إذا أنشدته صدقا

٢ــ وفريق قبلها مطلقا ووجد فى التعبير بها وسيلة لعمل الخيال والإبداع الفنى، ومن هؤلاء الشاعر البحترى الذى رفع لواء حرية الشاعر، وتحرير الشعر من الالتزام بقواعد العقل وقوانين المنطق، وضمّن هذا قوله المشهور:

كلفتمونا حدود منطقكم		فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه

وشعار هذا الفريق: أن الشعر يكفى فيه التخييل والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل دون أن يلتزم الشاعر بشىء من قواعد العقل والمنطق، وعلى هذا ساغ لهم أن يقولوا: خير الشعر أكذبه، على أن المراد بالكذب هنا: مجرد الادعاء والتخييل وليس الكذب الخلقى الذى يخدع به الكاذب غيره.

٣ــ وفريق توسط ولم يتطرف، فلم يرفض مطلقا ولم يقبل مطلقا بل فصّل، فقبل التبليغ والإغراق بشرطهما، ورفض الغلو إلا ما ثبت استثناؤه منه، وهذا هو رأى البلاغين الذين ارتضوه ولم يكد يشذ عنه أحد منهم، وأنا واحد منهم.[١]

٣ــ وما تركوك معصية ولكن يعاف الشرب والموت الشراب

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٧٠، ٢٧١، وينظر: شروح التلخيص: جـــ٤، ص٣٥٨، د/ عبد العظيم المطعنى، من قضايا البلاغة والنقد، ص١١٠، ١١١.

ساق الشاعر فى هذا البيت عذر بنى كلاب، يقول ابن جنى: "إذا كان الشراب الموت كره الورد، أى: إنما هربوا خوفا منك لا عصيانا لك"[١]، والبيت كما ترى مبنى على أسلوب القصر، بطريق العطف بـــ(لكن)[٢] فهو يفيد نفى العصيان عنهم فى تركهم الأمير، وإثبات الهيبة، وهو قصر قلب؛ لأن الممدوح يعتقد أنهم تركوه معصية، فجاء القصر فى مقام الاعتذار لهم ليقلب هذا الاعتقاد؛ استشفاعا لهم وطلبا للرفق بهم، فكأنه يقول له: تركهم لك كان خوفا منك وهيبا من مواجهتك وتحاشيا للقائك لا عصيانا لك، وفى هذا تأكيد على عذرهم.

والوِرد: ضدّ الصَّدَر، وهو الإقبال نحو الماء، وعاف الرجل الشراب: كرهه فلم يشربه، وجملة (والموت الشراب) فى موضع الحال، والمعنى: يكره الماء إذا كان شربه يميت، وأنت ترى أن طرفى الاسناد فى هذه الجملة معرفين بـــ(أل) الجنسية، وهذا التعريف يفيد القصر،

---

(١) الفسر شرح ابن جنى الكبير على ديوان المتنبى، تحقيق د/ رضا رجب، ط أولى، جـــ١، ص٢٦٤، دار الينابيع، دمشق.، وجاء فى هامش الفسر، جـ١، ص٢٦٤: "إنما كان سيف الدولة يستصحب منهم فى غزواته قوما فكانوا يقاسون المشقة ببلاد الروم وملاقاة العدو، وكان يقذف بعسكره فى نحر العدو فانفضوا عنه فى بعض غزواته، وأخذوا بعض سواده، وخرجوا من بلد الروم فجاءوا إلى صحراء (سبعين) وهى بالقرب من بالس، وكانوا ينزلون بها، ثم شنوا الغارة على القرى، فلما بلغه ذلك سار إليهم، فهذا هو الورد الذى عافوه، يعنى: دخولهم فى الغزوات"

(٢) اضطربت أقوال البلاغيين فى إفادة (لكن) للقصر، فهناك من يشترط لإفادتها القصر: ألا تدخل عليها الواو، وقد خالف فى ذلك بعضهم، ومنهم من يشترط أن يكون المعطوف بها مفردا، وهذا هو الأشهر، وخلاف الأشهر يجيز أن يكون معطوفها جملة...، ولا جدوى من مناقشة هذا الموضوع، يراجع فى هذا شروح التلخيص: جـ٢، ص١٩٠، دلالات التراكيب: ص٩٧ وما بعدها، و د/ بسيونى:علم المعانى، جـــ٢، ص٣٣ــ٣٥.

فالشاعر أراد المبالغة فى فتك سيف الدولة بمن يواجهه، أو يخرج عن أمره، فقصر الشراب بمعنى المواجهة على الموت قصرا ادعائيا.

وقوله: (يعاف الورد والموت الشراب) تركيب استعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلى، حيث شبه إعراض بنى كلاب عن مواجهة الممدوح خوفا وتحاشيا من الهلاك، بكراهية ورود الماء المميت، بجامع تهيب المخاطرة بالنفس فى أمر فيه الهلاك لا محالة، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، والقرينة حالية.

٤ــ طلبتهم على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب

الأمواه: جمع ماء، وهو يجمع على (أمواه) فى القلة وعلى (مياه) فى الكثرة[١]، ولعلك تسأل: لماذا كان يبحث الأمير عن بنى كلاب عند مواضع المياه؟ والجواب: أن العرب ومنهم بنى كلاب كانوا فى صحرائهم يتتبعون أماكن الماء فحيثما وجدوا الماء حلوا وأقاموا خيامهم، فشربوا وسقوا ورعوا، فإذا ما نفد الماء بحثوا عن مكان آخر فيه ماء، وقد يتصارعون على عيون الماء، وكان الماء ولا يزال نادرا قليلا فى صحراء العرب، ولعل ذلك هو سر اختيار المتنبى لجمع القلة (أمواه).

لقد حاول الممدوح العثور على بنى كلاب، وطلبهم على كل ماء، وفتش عنهم فى مظان وجودهم، وبالغ فى التفتيش والبحث حتى

---

(١) مختار الصحاح: مادة (موه)، ص٦٤٠.

وصل الأمر إلى غايته بتخوف السحاب أن يُفتش ويسأل عنهم، وتخوف السحاب مرجعه إلى أنه أصل الماء العذب فهو مظنة وجود بنى كلاب.

ولك أن تتأمل هذه الصورة البيانية الرائعة التى شبه فيها المتنبى السحاب بإنسان بجامع التأثر فى كل، ثم طوى المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه، وهو الخوف، وأثبت هذا اللازم للمشبه، وإثبات الخوف للسحاب تخييل يجعلك ترى السحاب يخاف ويرتعد، وتتملكه أحاسيس القلق والفزع من أن يتعرض للاستجواب، أو يسأل عن بنى كلاب، فالاستعارة هنا نفخت فى السحاب الروح، وجعلت له أحاسيس، فهو يخاف ويخشى، ويرجو ويتمنى، هذه المعانى جسمتها الاستعارة المكنية، وهى ــ كما يقول الزمخشرى ــ "من أسرار البلاغة ولطائفها: أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بشيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه"(١).

خبرنى عما تحس، وعما ينتابك من هول مما تسمع، وقل لنا كيف خطرت فى نفسك صورة السحاب حية حساسة ترتعد فزعا وَوَهَلا، وكيف تصورت السحاب دهشا مذهولا(٢)، هذه الصورة الشعرية التى بثت فى السحاب الروح هى ــ كما يقول زكى مبارك ــ "أثر الشاعر المفلق الذى يصف المرئيات وصفا يجعل قارئ شعره ما يدرى أيقرأ

---

(١) الكشاف: جـ١، ص٥٧.

(٢) ينظر: على الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص١٨٤.

قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظرا من مناظر الوجود"[١] ويقول الدكتور/ أبو موسى: "والاستعارة من الفنون التى تكشف عن طبيعة الشاعر وحسه، وكيف تستحيل الأشياء فى وجدانه إلى حالة جديدة ليست هى الأحوال الأليفة التى تراها عيون الناس"[٢].

٥ــ فبت لياليا لا نوم فيها تخب بك المسومة العراب

هذا البيت يصور مدى اجتهاد الممدوح فى البحث عن بنى كلاب، لقد واصل البحث ليال كثيرة دون نوم أو فتور، وذكر الليالي دون الأيام إشارة إلى أن البحث عنهم استغرق الأيام بلياليها، وفى ذكر الليالى مايغنى عن ذكر الأيام؛ لأن عادة العرب أنهم كانوا يسيرون نهارا ويستريحون ليلا، فإذا ما اتصل بحث الأمير عن بنى كلاب ليلا ونهارا دل ذلك على حزمه وعزمه وقوة سلطانه، وأنه لا يستريح حتى ينتهى من أعدائه، ولا يخفى ما في ذكر الليالى دون الأيام من إيجاز بليغ فيه تنقية للعبارة وتصفية لها مما أقيم عليه الدليل حتى لا يكون ذكره عبثا وفضولا..، وفيه إثارة لخيال المخاطب وتحريك لأحاسيسه ليدرك من العبارة ما طُوِى وسُكِت عنه.

وهذا البحث الدءوب فى الوصول إلى بنى كلاب إنما كان على خيل سريعة عربية أصيلة، وقوله: (تخب) من الخَبَب، وهو ضرب من

---

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثالثة، ص٦٩، مصطفى الحلبى، مصر.

(٢) الإعجاز البلاغى، ط أولى، ص١١٥، مكتبة وهبه.

العدو، والخبب السرعة[١]، والمسومة: المرعية، والمسومة أيضا: المعلَّمة[٢]، والعراب، وعربية الفرس: سلامته من الهجنة، والإعراب: معرفتك بالفرس العربى من الهجين، قال الكسائى: والمُعرِبُ من الخيل: الذى ليس فيه عرق هجين، وإبل عراب كذلك[٣].

ولعلك تلحظ ما توحى به صيغة المضارعة (تخب) من استحضار لتلك الصورة العجيبة البديعة، صورة إسراع الخيل بالممدوح خلف بنى كلاب وهى تصل الليل بالنهار، إنها صورة عجيبة تدل على قوة الممدوح ونفاذ أمره، فالمضارعة استحضرت هذه الصورة وكأنها واقعة أمام المخاطب يشاهدها ويتأملها ويبصر ما فيها من عجب وغرابة، فيكون تأثيرها أقوى ووقعها أشد.

وقد حُذف المسند إليه وأقيم الوصف مقامه فى قوله: (تخب بك المسومة العراب)، والأصل: تخب بك الخيل المسومة العراب، وحذف المسند إليه هنا لظهوره ظهورا لا لبس فيه، إذ (المسومة ــ العراب) من أوصاف الخيل، وهذان الوصفان كاشفان عن حقيقة الخيل، وموضحان لأصالتها وعربيتها الخالصة.

ولعلك تستشعر عزم الممدوح وانعقاد نيته على الوصول إلى الثائرين من بنى كلاب، لقد نزل على أماكن المياه؛ ليفتش عنهم،

---

(١) لسان العرب: مادة (خبب).

(٢) مختار الصحاح: مادة (سوم).

(٣) لسان العرب: مادة (عرب)، جـ٤، ص٢٨٦٦.

واجتهد؛ ليتعرف على أماكن وجودهم، حتى إن السحاب وهو فى الفضاء العلوى تخوف أن يكون محل اتهام بإخفائهم، ومحل نظر للتفتيش عنهم، ثم إن الممدوح قد استعان فى البحث عنهم بخيل مسومة عراب، وهى أجود أنواع الخيل، فعدا بها فى كل مكان يصل الليل بالنهار؛ يريد الظفر بهم والوصول إليهم، ولعلك تلمح ما فى تقديم الجار والمجرور (بك) على الفاعل (المسومة العراب) من اهتمام بالممدوح ؛لأنه معقد الكلام وغايته، فضلا عما فيه من المحافظة على القافية ومراعاة النسق الصوتى وما له من أثر فى المعنى ووقع فى النفس.

فإذا ما تجاوزنا الاستعارة المكنية حيث السحاب الخائف المذعور من تفتيش سيف الدولة، وقد جد فى طلب بنى كلاب على الأمواه ممتطيا صهوة خيل عراب تعدو به، فإذا ما تجاوزنا ذلك وجدنا تصويرا رائعا لجيش الممدوح يوحى بالفزع والهيبة والقوة والعظمة، يقول المتنبى:

٦ــ يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

العُقاب: طائر من العتاق، يقع على الذكر والأنثى، قوى المخالب له منقار[1]، لقد نظر المتنبى إلى هيئة الجيش نظرة دقيقة فاحصة، ورأى صورة الممدوح فى قلب الجيش وقواته تتحرك عن يمنه وشماله وتهتز فى صورة موجات بشرية متلاحقة تستمد من قوة الممدوح قوة، وتتزود من عظمته وسلطانه عظمة وأُبّهة، فشبه هذه الهيئة: هيئة الممدوح وهو وسط قواته التى تهتز بجانبيه، وهى تتحرك عادة معه، بهيئة ذلك العقاب الطائر

---

(1) لسان العرب: مادة (عقب)، جـ٤، ص٣٠٢٨.

الذى ينفض جناحيه من حوله ويحركهما فى طيرانه، فى وجه شبه حاصل من هيئة شيء يسير فى الوسط وعن يمينه وشماله من يتحرك ويسير بسيره[١].

" قد يسبق إلى الذهن إثر قراءة عابرة للبيت أن التشبيه قائم بين الجيش وطائر العقاب فى القوة، وهذا تبسيط للتشبيه يسلبه قيمته، لأن مغزى التشبيه يكمن فى إثبات أمرين متكاملين، هما: القوة الضاربة، والهيمنة الكاملة عليها، ويتجلى هذان الأمران فى جانب المشبه فى صورة الجيش بجناحيه الأيمن والأيسر وقد خضعا تماما للأوامر الصادرة إليهما من موقع القيادة فى القلب بينهما، فانتظم كل ما يصدر عنهما من حركة أو سكون، وفى جانب المشبه به فى صورة العقاب التى تنتظم حركة جناحيها فى الطيران وفقا للإشارات البالغة الدقة الصادرة من مركز الإحساس الذى يقع بين الجناحين"[٢].

إن صورة الفعل (يهز) توحى بالحركة والاضطراب والمد والجزر، وهذا ما يمثل حال الجيش فعلا فى سيره، وقائده فى وسطه وفى مكان القلب منه، فإذا وضعت هذا الفعل فى مقابل نظيره فى المشبه به (نفضت) وما يمثله نفض العقاب لجناحيه من ارتفاع وانخفاض وإسراع وإبطاء، فإن المشبه يكتسب صفات المشبه به حتى ليخيل إليك أن الأرض تهتز مع اهتزاز الجيش، وتتحرك بحركته، وتميل إلى أحد الجانبين ميلا عظيما ثم

---

(١) ينظر: الفسر، شرح ابن جنى الكبير على ديوان المتنبى: جـ١، ص٢٦٤، والبرقوقى: شرح ديوان المتنبى، جـ١، ص٢٠٥.

(٢) د/ شفيع السيد: التعبير البيانى، ص٥٥.

تعود فتعتدل، وقد تميل إلى الجانب اللآخر، وقد يحدث انقباض لميمنة الجيش وميسرته، وقد يحدث انبساط تبعا لطبيعة الأرض التى يسيرون فيها، شأن حركة العقاب الطائر الذى ينفض جناحيه من حوله ويرفرف بهما فى طيرانه، فيقبضهما تارة ويبسطهما أخرى وبخاصة عندما يراوغ فريسته ليقبض عليها(١).

إن الصورة التشبيهية هنا رائعة وأروع ما فيها اقترانها بالحركة، ولقد أشاد الإمام عبد القاهر بالتشبيه الذى يأتى ممثلا للحركة فقال: "اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحرا أن يجيء فى الهيئات التى تقع عليها الحركات"(٢)، وذلك لأن اقتران التشبيه بالحركة يزيد من قدرته على التأثير فى النفس، يقول الدكتور/ أبو موسى: "ووصف الحركة من بديع التشبيهات وجليلها؛ لأن التقاطها وهى جادة فى حركتها واضطرابها دليل المقدرة والوعى وقوة الملاحظة، ثم تصويرها وهى تتحرك، أعنى المحافظة على هذه الحركة الحسية الباعثة للنفس والتى تنفى عنها ملل الجمود ملكة أخرى"(٣).

ومما يلفت النظر أن المتنبى جاء فى جانب المشبه بالفعل المضارع (يهز)، وقد أصاب فى هذا؛ لأن صيغة المضارعة هنا أقدر الصيغ على تصوير الأحداث؛ لأنها تستحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهى

---

(١) د/ الهلال الوصيف الهلال، التصوير البيانى فى شعر المتنبى، " أولى، ص٢٨١، مكتبة وهبه.

(٢) أسرار البلاغة: ت الأستاذ محمود شاكر، ص١٨٠، دار المدنى، جدة.

(٣) التصوير البيانى: ص٥٢.

تقع، فحركة الجيش على خيول عراب تعدو مسرعة طلبا للعدو وما توحى به من قوة ضاربة وهيمنة كاملة شيء عظيم يحرص المتنبى على إبرازه واستحضار صورته يراها من يسمعه فى ضوء العبارة التى استطاعت أن تنقل مشهد الحدث من واقعه الذى مضى إلى مقام الحضور والمشاهدة "وهذا كما ترى من قدرات اللغة التى تستطيع كلمة منها أن تحضر مشهدا هائلا كهذا، وكأن الكون والزمان والأحداث كلها مضمرات فى بطون الكلمات، تفصح عنها حين تديرها يد الخبير بطبائعها"(١).

أما فى جانب المشبه به، فقد أتى الشاعر بالفعل (نفضت)، ومع أن حركة جناحى العقاب قبضا وبسطا وبخاصة عندما يراوغ فريسته بغرض الانقضاض عليها والإمساك بها من المشاهد التى تستهوى النظر والتأمل، إلا أنها من المشاهد المعتادة المكررة التى لا غرابة فيها ولا عجب منها، فلا داعى لاستحضارها بالمضارعة؛ لأن"التعبير بالمضارع عن الماضى استحضارا للصورة لا يحسن إلا فى الأمور الغريبة العجيبة التى يُهتم برؤيتها ومشاهدتها، لفظاعتها وغرابتها وشدة تأثيرها"(٢)

٧ــ وتسأل عنهم الفلوات حتى أجابك بعضها وهم الجواب

---

(١) د/ ابو موسى: خصائص التراكيب، ص٢٠٧.

(٢) د/ بسيونى فيود: علم المعانى، جـ١، ص٢٢٤.

الفلوات: جمع فلاة، وهى المفازة، والفلاة: القفر من الأرض، وقيل: هى التى لا ماء فيها، وقيل: هى الصحراء الواسعة، ويقال: الفلاة: المستوية التى ليس فيها شيء[١]

يقول: ما زلت تتتبع آثارهم حتى أدركتهم فى إحدى الفلوات، وفى لفظ (الفلوات) مجاز مرسل علاقته المحلية، حيث ذكر اسم المحل (الفلوات) واراد الحال بها وهم أهل الفلوات، وفى العدول عن الإسناد الحقيقى إلى الإسناد المجازى إشارة إلى ذيوع أمر بنى كلاب وما أحدثوه، وشيوع خبر هروبهم وطلب الممدوح لهم، واشتهار ذلك إلى درجة أنه لو سئلت الفلوات، أى: الجمادات عنهم لأجابت ونطقت.

والمتنبى يتابع تصويره لإصرار الممدوح على الإمساك بالخارجين عليه، فبعد أن فتش عنهم فى أماكن المياه فلم يجدهم، أخذ يبحث عنهم فى الفلوات الخالية من الماء ، ولشدة رغبته فى العثور عليهم أخذ يسأل عنهم الفلوات حتى أجابه بعض تلك القفار، وفى قوله: (حتى أجابك بعضها) تصوير رائع يشير إلى أن بعض تلك القفار تجاوبت مع سيف الدولة ففهمت السؤال وأسرعت بالجواب، وهذا مبنى على تشبيهها بالإنسان، فالاستعارة مكنية، وإثبات الجواب لبعض الفلوات تخييل يجعلك ترى الصحراء تتعاطف مع الممدوح فتجيبه وترشده إلى مكان بنى كلاب، فالاستعارة هنا استنطقت الجماد وجعلت له لسانا يجيب به فيتعاون مع الممدوح، يقول العكبرى: "جعل طلبه لهم كالسؤال عنهم،

---

(١) لسان العرب: مادة (فلا)، جـ٥، ص٣٤٧٠.

والظفر بهم كالجواب، وهما استعارتان، وليس ثم سؤال ولا جواب، وهذا مجاز"[١].

وكلام العكبرى يفيد أن فى البيت استعارتين، الأولى: استعار السؤال عنهم لطلبهم والبحث عنهم، والثانية: استعار الجواب للظفر بهم، وقد ذكرت أن استعارته الأولى من باب المجاز المرسل، والثانية استعارة مكنية، والغرض من هذا التصوير أن المتنبى يريد أن يؤكد فى النفوس هيبة الممدوح ونفاذ عزيمته، وأنه عندما طلب بنى كلاب لم تفتر له عزيمة حتى أصابهم وعثر عليهم، وهذا التصوير له فضله فى "تمكين المعنى فى نفس القارئ والسامع"[٢].

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٨٩، وينظر شرح ابن جنى، جـ١، ص٢٦٥، وشرح البرقوقى، جـ١، ص٢٠٥.

(٢) زكى مبارك: الموازنة بين الشعراء، ص٧٤.

المبحث الثانى
وصف المعركة بين سيف الدولة وبنى كلاب

٨ــ فقاتل عن حريمهم وفروا ندى كفيك والنسب القراب
٩ــ وحفظك فيهم سلفى معد وأهم العشائر والصحاب

يقول إنهم لما فروا وهربوا وظفر بحريمهم حماهم ومنعهم من السبى، فقاتل دون حريمهم ندى كفيك، والنسب القراب، وحفظك فيهم سلفى معد، وأهم عشائرك وأصحابك، والمراد بـــ (سلفى معد): ربيعة ومضر؛ لأن سيف الدولة ينتهى إلى ربيعة؛ لأنه من تغلب، وبنو كلاب ينتهون إلى مضر؛ لأنهم من قيس، وربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان[١]

والحريم: ما حُرِّم فلم يُمس، والحُرمَة: ما لا يحل لك انتهاكه، والمحارم: ما لا يحل استحلاله، وحُرَمُ الرجل: عياله ونساؤه وما يحمى، وهى المحارم، وحَرَمُ الرجل وحَرِيمُه: ما يقاتل عنه ويحميه[٢]، ولفظ الحريم فى البيت كناية عن النساء، فهى أشد ما يحافظ عليه العربى المسلم ويحميه، ويستميت فى الدفاع عنه، ولا يتخلى العربى عن حريمه إلا عند الشدة التى ما بعدها شدة، وفى هذا إشارة إلى أن بنى كلاب لم يستطيعوا مواجهة الممدوح وجيشه؛ لأن الموت فى مواجهته، ففروا نجاة بأنفسهم، وتركوا حريمهم، والتعبير بالفرار كناية عن قوة الجيش وشدته، وأنه لا يُواجه ولا يُقاوَم، ولا يملك العدو أمامه إلا الفرار بنفسه.

---

(١) ينظر: عبد الرحمن البرقوقى، شرح ديوان المتنبى، جـــ١، ص٢٠٦.

(٢) لسان العرب: مادة (حرم)، جـــ٢، ص٨٤٥، وما بعدها.

ولعلك تلمس معى دقة المتنبى فى اختيار لفظ (الحريم) المكنى به عن النساء، وكأنه يوحى بأن حرمة نساء بنى كلاب محمية وأعراضهم مصونة لا تمس ولا تنتهك ولا تستحل، وفى هذا إشادة بدين الأمير وجميل خُلُقِه، وأنه لا يستبيح الأعراض ولا ينتهك الحرمات، وبخاصة إذا تعلق الأمر بنساء المسلمين، فهم أولى بالحفظ والرعاية والتكريم والحماية، ولعل هذا هو سر تقديم الجار والمجرور (عن حريمهم) على الفاعل (ندى كفيك) وما عطف عليه.

وفى البيت تقديم آخر حيث قدم الفعل (فقاتل) على (وفروا)، والترتيب الطبعى للمعنى: أنه عندما رآهم فى بعض الفلوات وظفر بهم بعد البحث عنهم فروا فلم يواجهوه، وتركوا نساءهم غنيمة للجيش، فقاتل عن حريمهم...، هذا هو الترتيب الطبعى للأحداث، لكن المتنبى قدم القتال عن حريمهم، على فرارهم؛ إشعارا بأن جل اهتمام الممدوح كان منصبا على حماية الحريم؛ لما لهم من حرمة وقُربٍ تجعله يقاتل عنهم، ولك أن تلمح فى تعبير المتنبى عن الحماية بالقتال ما يؤكد أن الممدوح منع بقوة سلطانه استحلال حرمة نساء بنى كلاب وحماهم من أسر جيشه الظافر المنتصر، فالاستعارة التبعية فى الفعل (فقاتل)، والفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب يشيران إلى أن الممدوح ما أن رأى هروب بنى كلاب حتى أسرع بحماية الحريم، ولم يطلق يد الجيش لحظة لتعبث بحرماتهم أو تأسر نساءهم، لقد استغل هيبته وسلطانه فى الزود عن الحريم، يقول

العكبرى: "ولم يكن ثم قتال، وإنما لما حماهم جعله قتالا عنهم، استعارة، أى: هذا رداك عنهم"(١).

ولعل فى إسناد الفعل (فقاتل) إلى سببه (ندى كفيك) وما عطف عليه (والنسب القراب، وحفظك فيهم سلفى معد، وأنهم العشائر والصحاب): ما ينبئ بعظم صفات الممدوح فهو كريم الأخلاق يعفو عن مقدرة، ويحسن ويصون الأعراض، ويحفظ للقريب حق قرابته وصحبته ــ وإن أساء ــ ، فالشاعر أسند الفعل (فقاتل) إلى ندى الكفين وما عطف عليه، وهذه الصفات لم تقاتل عن الحريم، وإنما كانت سببا فى الدفاع عن الحريم والزود عن النساء فكأنها قد قاتلت، وفى هذا ما فيه من تأكيد لهذه السببية بجعلها فاعلا للقتال والزود عن الحريم، يقول ابن جنى: "ولم يكن ثم قتال، ولكنه أراد أن ندى كفيه وَقِرَبَ النسب قاما لهم مقام القتال ومن يذبّ عنهم ويقاتل دونهم، لأنهما هما اللذان ردّاه عنهم"(٢) ، والمجاز العقلى كما يقول الشيخ/ عبد القاهر: "كثر من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان والاتساع فى طرق البيان، وأن يجيء الكلام مطبوعا مصنوعا، وأن يضعه بعيد المرام قريبا من الأفهام"(٣).

١٠ــ تكفكف عنهم صم العوالى وقد شرقت بظُعنهم الشعاب

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـــ١، ص٨٩.

(٢) الفسر شرح ابن جنى الكبير على ديوان المتنبى: جـــ١، ص٢٦٦.

(٣) دلاءل الإعجاز: ص٢٩٥.

يريد: أنك تكف عنهم الرماح، وقد امتلأت طرق الجبال بِظُعنِهِم[١]،والظُّعنُ: جمع ظَعِنَة، والظَّعينَةُ: الجمل يُظعَن عليه، والظَّعينة الهودج تكون فيه المرأة سُمِّيت به على حدّ تسمية الشيء باسم الشيء؛ لقربه منه[٢]، ومن هنا فقد أطلق المتنبى لفظ الظُّعن جمع ظَعِنة، وهى الإبل يُظعن عليها على النساء مجازا مرسلا علاقته المجاورة.

وتأمل لفظ (شرقت) وما فيه من دلالة على الامتلاء، فالشّرَقُ: الشجا والغصة، والشّرَق بالماء والريق ونحوهما كالغَصَصِ بالطعام، وتقول: شرق الموضع بأهله:امتلأ وضاق[٣]، أى: امتلأت شعاب الصحراء وطرقها بنسائهم الفزعات الخائفات، يقول ابن جنى: "وشرقت بهم: امتلأت كما يشرق الإنسان بالماء ونحوه؛ لأنهم هربوا وانجحروا"[٤]، ومضمون كلامه يشير إلى أن لفظ (شرقت) مستعارة للامتلاء، بتشبيه الامتلاء بالشَّرَق بجامع عدم قبول الزيادة فى كل، ثم اشتق من الشَّرَق (شَرِقت) بمعنى: امتلأت على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية، والاستعارة توحى بكثرة نساء بنى كلاب، وأنهم لكثرتهم شرقت بهم الشعاب شرقا كاد يودى بحياة الكثيرات منهن، وفى هذا أيضا إشارة إلى أن الممدوح قد أتى على جميع نساء بنى كلاب، ولم تفلت منهن واحدة مما أدى إلى شرق الشعاب بهن.

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٨٩.

(٢) لسان العرب: مادة (ظعن)، جـ٤، ص٢٧٤٨.

(٣) لسان العرب: مادة (شرق)، جـ٤، ص٢٢٤٧.

(٤) الفسر شرح ابن جنى الكبير على ديوان المتنبى: جـ١، ص٢٦٨.

ولامتلاء الصحراء وطرقها بنسائهم سرٌ فى الإتيان بصيغة المضارعة (تكفكف) التى تستحضر هذا المشهد الغريب العجيب، مشهد امتلاء الصحراء بنسائهم، والممدوح يكفكف ويمنع عنهم رماح جيشه، ويمنع عنهم الأسر والذل، ويحميهم من استطالة جيشه عليهم، وتتجدد الحماية والمنع كلما أحسّ بجموح جنوده نحو انتهاك حرمة النساء أو محاولة أسرهم.

١١ــ وأُسقطت الأجنة فى الولايا وأُجهضت الحوائل والسِّقاب

الأجنة: جمع جنين، وهو الولد ما دام فى بطن أُمِّه[١]، وإسقاطه: إلقاؤه قبل تمامه، يقال: أسقطت المرأة ولدها إسقاطا، وهى مُسقِطٌ: ألقته لغير تمام، والسِّقط بالفتح والضم والكسر، والكسر أكثر: الولد الذى يسقط من بطن أُمِّه قبل تمامه[٢].

والولايا: جمع وَلِيّة وهى: البَرذَعَة، وإنما تسمى بذلك إذا كانت على ظهر البعير؛ لأنها حينئذ تَلِيَه، وقيل: الوَلِيّة التى تحت البرذعة، وقيل: كل ما ولى الظهر من كساء أو غيره فهو وَلِيّة[٣]، والمعنى أن النساء أسقطت أجنتها التى لم تكتمل أسقطتها فى براذع الجمال، وهذا كناية عن شدة خوفهم وما لحقهم من التعب والإجهاد عند هروبهم.

والإجهاد: إلقاء الناقة ولدها لغير تمام، قال الأزهرى: يقال ذلك للناقة خاصة، ويقال: أجهَضَتِ الناقة: إذا ألقت ولدها قبل أن يستبين

---

(١) لسان العرب: مادة (جنن)، جـ١، ص٧٠٢.
(٢) لسان العرب: مادة (سقط)، جـ٣، ص٢٠٣٧.
(٣) لسان العرب: مادة (ولى)، جـ٦، ص٤٩٢٣.

خَلقُه[١]، والحوائل: جمع حائل وهى الأنثى من أولاد الإبل ساعة تُوضَع، والذكر: سَقبٌ[٢]، والمعنى: أن نوقهم ألقت حملها قبل التمام؛ بسبب ما لحق بها من التعب والإجهاد أثناء هروبها من جيش الممدوح.

ولعلك تلمح دقة المتنبى فى الإتيان بلفظ (شرقت) فى البيت السابق واصطفائه على لفظ (امتلأت)، لأن (الشَّرَق) أحيانا يفضى إلى الموت، وها هو ذا الموت يصل إلى الأجنة فى بطون أُمّهاتها فتسقط دون تمام، وما ذاك إلا لفظاعة أحوالهن وكرب وهول ما اكتنفهن من شدة الخوف وإعياء الشَّرَق.

والكرب لم يتوقف عند إسقاط الأجنة بل ارتقى فى الفظاعة حتى أثر فى الإبل النجيبات التى هى أشد تحملا من النساء، فأصابها الإعياء والإجهاض، فألقت ما فى بطونها ذكورا وإناثا وتخلت، والبيت ــ كما ذكرت ــ فيه كناية عن شدة الخوف وهوله، وعظم الجهد وفظاعته، وقرينة الكناية لا تمنع من حدوث الإسقاط والإجهاض حقيقة.

وفى بناء الفعلين (وأُسقِطَت ــ وأُجهِضَت) للمفعول إفادة بأن المسند إليه (الفاعل) قد حذف وقام غيره مقامه، وحذف المسند إليه إنما كان لعظم فظاعته، وكأن العبارة لا تحيط بكنهه، فترك لتذهب النفس فيه كل مذهب، فيُقَدّر: فأسقطت أهوال رؤية جيش الممدوح أجنة النساء فى الولايا، أو أسقطت قسوة الهرب.....، أو شدة التعب والإرهاق...، أو

---

(١) لسان العرب: مادة (جهض)، جـ١، ص٧١٣.

(٢) لسان العرب: مادة (حول)، جـ٢ن ص١٠٥٧.

هول المفاجأة....، وهذا يشير إلى المبالغة فى قوة الممدوح وهيبة جيشه ونكوص عدوه وفزعه.

١٢ــ وعمرو فى ميامنهم عُمُورٌ وكعب فى مياسرهم كعاب

١٣ــ وقد خذلت أبو بكر بنيها وخاذلها قريظ والضباب

عمرو وكعب: قبيلتان تفرقت إحداهما ذات اليمين والأخرى ذات اليسار، وأبو بكر، وقريظ، والضباب بطون من بنى كلاب، يريد المتنبى أن يقول: إنهم لما انهزموا تفرقوا فصارت عمرو عُمُوراً؛ لتفرقهم، وكذلك كعب، وفى معناه لكعب بن مالك:

رأيت الشَّعبَ من كعب وكانوا من الشنآن قد صاروا كعابا

أراد: أن آراءهم تفرقت وتضادت فكان كل ذى رأى منهم قبيلا على حدته؛ فلذلك قال: صاروا كعابا[١].

والخذل: ترك العون والنصرة[٢]، وأبو بكر قبيلة، وإسناد الخذل إليها مجاز، وحقه أن يسند إلى أهل القبيلة، وفيه ما فيه من المبالغة فى تفرق هؤلاء وضعفهم وعدم تناصرهم، وأن هذا الأمر شاع وانتشر حتى إن القبيلة بمعناها المعنوى والحسى لم تتعاون مع أهلها، ولم تنصر ساكنيها.

والتخاذل الذى حدث بين بطون بنى كلاب كناية عن تشاغل كل إنسان منهم بنفسه، وتشاغل كل إنسان منهم بنفسه، وتركه نصرة أهله

---

(١) ينظر: ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٠، لسان العرب، مادة (كعب)، جـ٥، ص٣٨٨٩.

(٢) مختار الصحاح، مادة (خذل)، ص١٧١.

وعشيرته وحريمه إنما يحدث عندما تشتد الأهوال ويحمى الوطيس، ويبلغ السيل الزبى[١]، وفى هذا إشادة بهيبة سيف الدولة وقوة جيشه، وسرعة انقضاضه على عدوه بحيث لا يدع لهم مجالا للتجمع أو التناصر.

ولعلك تلمس ما للطباق بين قوله: (ميامنهم ــ وــ مياسرهم)، وما يوحى به من استيعاب أهم جهتين للنجاة اليمين واليسار؛ لأنهم إن تفرقوا للأمام فجيش الممدوح سيدركهم؛ لأنه أقوى وأسرع، وإن تفرقوا للخلف فهى المواجهة وفيها الموت، كما قال: (يعاف الورد والموت الشراب)، فليس ثمت إلا اليمين واليسار، وقد تفرقوا فيهما؛ نجاة بأرواحهم.

١٤ــ إذا ما سرت فى آثار قوم تخاذلت الجماجم والرقاب

التخاذل: ضد التناصر، تقول: خَذَلَه وخَذَلَ عنه يخذُلُهُ خَذلاً وَخِذلاناً: ترك نصرته وعونه، وتخاذلوا، أى: خذل بعضهم بعضا[٢]، والتخاذل فى البيت واقع بين الجماجم، وهى الرءوس، والرقاب حاملة الرءوس، وللشراح فى بيان المراد من هذا البيت أقوال:

قال ابن جنّى: "التخاذل: التأخر، وإذا تأخرت الجمجمة والرقبة تأخر الإنسان، أى: لما سرت وراءهم كأن رءوسهم تأخرت؛ لإدراكك

---

(١) الزُّبى: جمع زُبية، وهى حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فــإذا بلغهــا السيل كان جارفا مجحفا، يضرب هذا المثل لما جاوز الحدّ، ينظر: مجمع الأمثال للميدانى، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، جــ١، ص١٥٨، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ــ ١٩٨٧م

(٢) لسان العرب: مادة (خذل)، جــ٢، ص١١١٨.

إياهم، وإن كانت فى الحقيقة قد أسرعت، ويجوز أيضاً أن تكون قد تخاذلت؛ لما لقيت من سيوفك، أى: تساقطت لما ضُربت بالسيوف"[١].

وفى قول ابن جنّى: (وإذا تأخرت الجمجمة والرقبة تأخر الإنسان) إشارة إلى أنه جعل هاتين اللفظتين (الجماجم والرقاب) من باب المجاز المرسل، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، فالشاعر أطلق(الجماجم والرقاب) وأراد: شخوص القوم، وقد اختار الشاعر أهم عضوين يظهر فيهما التخاذل، فالجمجمة بما تحمل من حواس يُدَبَّر فيها أمر التخاذل، والرقاب حاملة الجماجم هى أول من يظهر عليه التخاذل فى تحولها نحو الإدبار والهروب، ورأيه الذى ذكره على سبيل الجواز يشير إلى أن تخاذل الجماجم والرقاب كناية عن القتل؛ لأن التخاذل بين الجماجم والرقاب لازم من لوازم التفريق، والتفريق لازم من لوازم القتل، فلا حياة مع انفصال الجماجم عن الرقاب.

وقال أبو الفضل العروضى معقبا على رأى ابن جنى: "ما أبعد ما وقع من الصواب، ــ ويقول ــ وتخاذل الجماجم والرقاب: هو أن يضربها بالسيف فيقطعها ويفصل بينها فتتساقط، فكأن كل واحد منهما خذل صاحبه"[٢]، ووجهة نظر أبى الفضل مبنية على أن فى الكلام استعارة، فالمتنبى استعار التخاذل للفصل بين الجماجم والرقاب، فكأنه

---

(١) الفسر شرح ابن جنى الكبير على ديوان المتنبى: جـ١، ص٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٠.

شبه الفصل بين الجماجم والرقاب المؤدى إلى فقد الحياة بالتخاذل المؤدى إلى الضعف بجامع التفرق فى كل، والاستعارة تصريحية تبعية.

وقال الواحدى: "والذى عندى فى معنى هذا البيت غير ما ذكراه[١]، وهو أنه يقول: إن الرءوس تتبرأ من الأعناق، والأعناق تتبرأ منها؛ خوفا منك فلا يبقى بينهما تعاون"[٢]، ورأى الواحدى مبنى على أن الأسلوب قائم على الاستعارة المكنية بتشبيه الجماجم والرقاب بشخصين ثم حذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه وهو التخاذل؛ لأن بنى البشر هم الذين يتعاطون التخاذل والتناصر فيما بينهم.

وقال الخطيب وأبو العلاء: "أصل التخاذل: التأخر، أى: لما لقيت سيوفك تأخرت وتخاذلت، أى: تساقطت لما ضربت بالسيوف"[٣]، وهذا الرأى مبنى على أن تخاذل الجماجم والرقاب كناية عن القتل والموت؛ لأن عدم التناصر والتلاحم بين الجماجم والرقاب لازم من لوازم الموت والقتل، فلا حياة مع تفرق الجماجم والرقاب.

والرأى عندى أن تخاذل الجماجم والرقاب: كناية عن القتل؛ لأن عدم التناصر والتلاحم بين الجماجم والرقاب لازم من لوازم الموت والقتل، والشاعر يشيد بقوة الممدوح وسطوة جيشه، وأنه إذا ما قصد قوما أعمل فيهم السيوف وفرق بين جماجمهم ورقابهم، ووقوع التخاذل بين الجماجم والرقاب جواباً لإذا الشرطية فيه تأكيد لهذا المصير؛ لأن

---

(١) يقصد ابن جنى، وأبى الفضل العروضى.

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٠.

(٣) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩١.

(إذا) تستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه، او الشرط الذى يُظن ظنا قويا وقوعه، وهذا مبنى على أن الممدوح دائم الغزوات؛ لأنه يرابط فى ثغر من ثغور الإسلام، فهو يجاور دولة الروم وله معها وقعات كثيرة، وكذلك مع الثائرين عليه من العرب.

١٥ــ فعدن كما أُخذن مُكرَّمات عليهن القلائد والملاب

القلائد: جمع قلادة، وهى ما يجعل فى العنق[١]، والملاب: ضرب من الطيب، والمتنبى يريد أن يقول: إن الممدوح عندما ظفر ببنى كلاب أخذ نساءهم فرجعن مكرّمات عليهن قلائدهن وطيبهن لم يذهب منهن شىء، وعدن إلى أماكنهن مُكرَّمات عن السبى[٢].

والتشبيه فى البيت يصور حالتين لنساء بنى كلاب: حالة أخذهن من ديارهن على يد أهلهن، وأقاربهن؛ فرارا من الممدوح وجيشه، والحالة الثانية: حالة عودتهن إلى ديارهن على يد الممدوح وجيشه، ووجه الشبه بين الأخذ والعودة هو الصون والحفظ فى كل، وعودتهن مصونات محفوظات مُكَرَّمات كما أُخذن إنما يدل على سعة أخلاق الممدوح وكريم صفاته، وأنه لا ينتهك الحرمات، وإنما يصونها ويحميها ويدافع عنها ويحفظ للقريب عرضه وإن أساء.

ولعلك تلمس تلك الصفات الحميدة التى يتصف بها الممدوح فيما ذكره المتنبى من أحوال نساء بنى كلاب عندما رجعن إلى ديارهن، وأهن

---

(١) لسان العرب: مادة (قلد)، جـ٥، ص٣٧١٨.

(٢) ينظر: ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩١.

كن بقلائدهن وطيبهن لم يذهب شيء من ذلك، إنك تجد نساء بنى كلاب فى أبهى حللهن وتمام زينتهن، وقد فرَّ المدافع عنهن، فالمرأة هكذا أشدّ جذبا للهو الجيش وعبث الجنود، وبخاصة إذا كان الجيش منتصرا يتتبع آثار من أساءوا إلى الممدوح، ومع كل هذا فإن النسوة عدن إلى ديارهن كما أُخذن منها مصونات مُكَرَّمات لم يُؤسَرن، ولم يُخدَش حياؤُهن، ولم تنتهك حرماتهن، ولم يسط أحد على حُلِيّهن، ولم يمكثن كثيرا خارج ديارهن، فما أن عُثِرَ عليهن حتى عدن إلى ديارهن، وهذا ما يلحظ من دلالة الفاء فى مطلع البيت، ورجوعهن محتفظات بطيبهن، وعودة نساء بنى كلاب إلى ديارهن محتفظات بتلك الصفات ليس أمرا سهلا وإنما يتطلب جهدا من الممدوح ومانعا قويا يحول بين شراهة الجيش المنتصر وبين العبث بنساء بنى كلاب وأسرهن وأخذ قلائدهن، هذا المانع هو ما ذكره المتنبى قبل ذلك فى قوله :

فقاتل عن حريمهم وفروا ندى كفيك والنسب القراب
وحفظك فيهم سلفى معد وأنهم العشائر والصحاب

أرأيت صفات كتلك التى تحلى بها الممدوح،أرأيت كيف قدر فملك، وعفا فأحسن؟! وهل تجد فى حروب الحضارة الحديثة قائدا يتحلى بتلك الأخلاق؟! لقد أجاد المتنبى وأحسن فى تصوير أخلاق الممدوح وكريم صفاته وعظيم سجاياه.

١٦ــ يثبنك بالذى أوليت شكرا وأين من الذى تولى الثواب

يقول إن هؤلاء النسوة يشكرنك على ما أوليتهن من الإحسان، وصيغة المضارعة (يثبنك) تدل على التجدد والحدوث، أى: تجدد الشكر تبعا لتوالى إحسان الممدوح إليهن، وهذا أقل ما تقدمه نساء بنى كلاب لمن تلك صفاته، ألم يحافظ عليهن؟ ألم يصن حرمته؟ ألم يمنعهن من الأسر؟ ألم يكف الجيش المنتصر عن العبث بهن؟ ألم يردهن إلى ديارهن محتفظات بقلائدهن وطيبهن وكرامتهن؟ ، ولكن أين موقع الثواب مما أولاه الأمير لهن من الإحسان؟ إن إحسان الأمير إليهن أعظم وأجل من أن يكافأ.

لقد أتى المتنبى فى الشطر الثانى من البيت بهذا الاستفهام: (وأين من الذى تولى الثواب؟) المفيد للنفى، أى: إن ثوابهن لك لا يساوى شيئا مما فعلته لهن؛ لأن إحسانك أعظم وأجل من أن يقابل بثواب، "وإفادة النفى بطريق الاستفهام أقوى دلالة على معنى النفى من إفادته بأدواته الموضوعة له...، ويرجع ذلك إلى أن النفى بطريق الاستفهام فيه تنبيه للمخاطب وتحريك لمشاعره وإثارة لفكره كى يبحث عن جواب لهذا الاستفهام، إذ ما من استفهام إلا ويتطلب جوابا، وبعد بحث المخاطب وإطالة تفكيره فى الجواب الذى يجيب به هذا الاستفهام لن يجد إلا النفى بل سيجد مع النفى معانى أُخر أفادها الاستفهام كالإنكار والتعجب..،وغير ذلك من معان، ولهذا كانت إفادة الاستفهام للنفى أقوى دلالة على معنى النفى من إفادته بأدواته الموضوعة له"[١]

---

(١) د/ بسيونى فيود: أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم، ص١٨٩، رسالة دكتوراه مخطوطة فى مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة، تحت رقم ٢٠٣٢.

ولك أن تلمح ما فى الاسم الموصول فى الشطرين من ابهام أدى إلى التفخيم والتعظيم، ولو أردت تفصيل ما أفاده الموصول فقلت: يثبنك على حفظك لعرضهن ...، أو منعهن من الأسر...، أو إكرامك لهن...، أو الزود عنهن..، لو قلت مثل هذا ما أفدت ما أفاده الاسم الموصول فى شطرى البيت من تفخيم لفعل الممدوح بنساء بنى كلاب، وأن ما أولاهن من الجميل مما لا يحيط به الوصف.

١٧ــ وليس مصيرهن إليك شينا ولا فى صونهن لديك عاب

١٨ــ ولا فى فقدهن بنى كلاب إذا أبصرن غرتك اغتراب

يقول: "ليس فى مصيرهن إليك وصونهن لديك أى عيب؛ لأنهن بإكرامك إياهن كأنهن عند أهلهن وأزواجهن"(١)، " وإنهن ليس عليهن غربة وإن بعدن عن أزواجهن وأقاربهن إذا رأيناك؛ لأنهن من أهلك وعشيرتك، فكأنهن عندك فى أوطانهن لم يغتربن لمقامهن عندك"(٢).

ولك أن تنظر إلى القيد بالشرط (إذا أبصرن غرتك) فمن المعروف أن (إذا) تستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه، أو يظن ظنا قويا وقوعه، وهذا يشير إلى أن إبصارهن للممدوح قد وقع وحدث فعلا، ومن هنا أنسن برؤيته ولم يشعرن ببعد أو إغتراب، وهذا ينعكس بدوره على أخلاق الممدوح واهتمامه بشأن نساء بنى كلاب، فقد تولى هو نفسه

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى، شرح ديوان المتنبى، جـ١، ص٢١٢.

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩١.

الإشراف على شأنهن وتدبير أمرهن، ولم يكل ذلك لأفراد جيشه أو لأحد قواده.

ولك أن تلمح ما فى لفظ (غرتك) وأن لم يقل: إذا أبصرنك، فقد أوقع الإبصار على غرة الممدوح، والإبصار إنما يكون لشخص الممدوح كله، وإنما خصت الغرة بإيقاع الإبصار عليها دون سائر الجسد؛ لأنها أول ما يقع عليه نظر الخائف الملهوف، ليتعرف منها على مصيره، ولأنها كالمرآة يظهر عليها ما يدور فى صدر الإنسان من عفو أو انتقام، إذ إن كل ما يجرى فى النفس الإنسانية ينعكس غالبا على الجبهة، فلما أبصر نساء بنى كلاب غرة سيف الدولة ورأينها مشرقة متلألئة تنم عن كل خير لم يخفن ولم يستوحشن، ولم يشعرن بغربة ولا فقد لأهلهن، ففى غرة الأمير وما توحى به من الأمن والأمان والعفو والإحسان ما يؤمن من ذلك كله.

١٩ــ وكيف يتم باسك فى أُناس تصيبهم فيؤلمك المصاب

الاستفهام تعجبى، يتعجب المتنبى من تلك الحالة التى تمتلئ بالمشاعر المتضاربة، والأحاسيس المتقابلة، أى: كيف يتم بأسك ويكتمل نصرك ويفرح فؤادك ويسعد محياك فى قوم إذا نالهم مكروه نالك، "فلا ترى أن تصيبهم بمكروه لأنهم قومك فإذا أصبتهم بمكروه أصبت به نفسك[1]؟

ويلحظ فى الاستفهام بجانب التعجب معنى النفى، أى: لا يتم بأسك فى أُناس تصيبهم فيؤلمك المصاب، والمتنبى فى هذا البيت يركز على قرابة بنى

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩١.

كلاب من الممدوح، وأن هذه القرابة هى التى تجعله يتألم لألمهم ويحزن لحزنهم، وفى هذا إشارة إلى أن الممدوح لم يطلب بنى كلاب استعراضا لقوته، ولم يسر خلفهم رغبة منه فى الحصول على غنائمهم، وإنما ردّاً على إساءتهم، وحفظا لسلطانه وهيبته، ومع هذا فهو يتألم مما يصيبهم؛ لأنهم أهله وعشيرته وأصحابه.

المبحث الثالث
الاستعطاف لبنى كلاب

٢٠ــ ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجانى عتاب

٢١ــ وإنهم عبيدك حيث كانوا إذا تدعوا لحادثة أجابوا

صُدِّر البيت الأول بفعل الأمر (ترفق) المتبوع بالنداء المحذوف الأداة: (أيها المولى عليهم)، وأُسلوب الأمر هنا للنصح والإرشاد؛ لأنه تضمن نصيحة لم تكن على جهة الإلزام، فالمتنبى ينصح الممدوح أن يتحلى بتلك الخصلة الحميدة خصلة الرفق بالجناة من بنى كلاب، وفى النصح تعبير عما يضمره المتنبى من حب وإخلاص لسيف الدولة، وميل وعطف على بنى كلاب.

أما النداء: (أيها المولى عليهم)، فقد حذفت منه الأداة والأصل: يا أيها المولى، ولعل فى ذلك تعبيرا عن شعور المتنبى بقربه من الممدوح، وهكذا كان، والصفة التى نودى بها الممدوح تتناسب مع مقام العفو، فهو مولاهم الذى يلى أمرهم، وهو القريب الناصر الذى عِزُّهم من عِزّه ومنعتهم من منعته، فهو أهل للعفو عنهم.

وقد أفاد أُسلوب النداء هنا: الإغراء؛ لأن فيه حَسّا على حصول الرفق ببنى كلاب والعفو عنهم، والنداء يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر، والنصح المفاد من الأمر (ترفق) يَقوَى ويتأكد بالنداء كما يقوى ويتأكد أيضا بقول المتنبى: (فإن الرفق بالجانى عتاب)؛ لأن هذه العبارة فيها حث على الرفق وترغيب فيه.

ومن الملاحظ أن هذه العبارة جاءت مؤكدة: (إن الرفق بالجانى عتاب)؛ إخراجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، تنزيلا لغير المتردد فى مضمون الخبر منزلة السائل المتردد، "وذلك لا يكون إلا لأسرار يلتفت إليها المتكلم ويعيها البصير بلطائف هذه اللغة ودقائقها، فعندما تكون الجمل المتقدمة فى سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر ويلوح به ويومئ إليه فإنها تثير فى النفس المتلقية تساؤلا يجعلها تتطلع وتستشرف إلى معرفة الخبر والوقوف عليه، وعندئذ تأتى جملة الخبر مؤكدة؛ لتزيل ما أُثير فى نفس المخاطب من تساؤلات واستشرافات منزلة إياه منزلة المتردد السائل، ويقع هذا غالبا إذا كانت الجمل السابقة تتضمن نصحا أو إرشادا أو توجيها أو نهيا أو أمرا أو حدثا غريبا يستدعى وقوف النفس وتأملها"[١].

وهذا الخبر (إن الرفق بالجانى عتاب) تقدمه أمر (ترفق أيها المولى عليهم) فأثار هذا الأمر المتقدم فى نفس المخاطب تساؤلا وتطلعا إلى معرفة الخبر، فنزل منزلة السائل المتردد، ومن هنا جاءت جملة الخبر مؤكدة بـــ (إن)؛ لتزيل ما أُثير فى نفسه من تساؤل واستشراف.

وهذه الجملة: (إن الرفق بالجانى عتاب) إطناب بالتذييل[٢]؛ لأنها تتضمن معنى الجملة الأولى: (ترفق أيها المولى عليهم) فهى مؤكدة لها،

---

(١) د/ بسيونى: علم المعانى، جـ١، ص٤٣.

(٢) التذييل: أن يذيِّل المتكلم كلامه بجملة يتحقق فيها ما قبلها من الكلام، وتلك الجملة على قسمين: قسم لا يزيد على المعنى الأول، وإنما يُؤتى به للتوكيد والتحقيق، وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به

وتفيد معنى يمكن استقلالها بإفادته عما قبلها فهى تذييل جار مجرى المثل[١].

يقول العكبرى: "يريد أنهم إن كانوا جنوا وأخطأوا فترفق بهم، فإن من رفق بمن جنى عليه كان رفقه عتابا، والرفق بالجانى والإحسان إليه يجعله عبدا لك، فهو كقوله: (وما قتل الأحرار كالعفو عنهم)"[٢].

٢٢ــ وعين المخطئين هم وليسوا بأول معشر خطئوا فتابوا

٢٣ــ وأنت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهم عقاب

يعتذر المتنبى لبنى كلاب إلى سيف الدولة، فهم مخطئون فى عصيانهم، وقد جانبهم الصواب فى الخروج عن طوعك، وها هم أولاء يعتذرون إليك، ويطلبون العفو عن فعلتهم، والحقيقة أن الخطأ ليس مقصورا عليهم بل هو من صفات الإنسان، "وقد تابوا والتوبة تجب ما قبلها وهم عبيدك حيث كانوا إذا دعوتهم للموت أجابوك، وكلهم اعتذار إليك"[٣].

وانظر إلى قوله: (وأنت حياتهم) وكيف خاطبه بضمير الخطاب (أنت) فى مقام الاعتذار وطلب الرفق بالجناة؛ إذ يحلو للمتكلم أن يخاطب من يرجو رفقه وعفوه، وأن يردد ضميره مسندا إليه مايريد، وقد أسند إليه صفة الحياة التى هى نقيض الموت مضافة إلى ضمير المخطئين؛

ما قبله" تحرير التحبير، ص٣٨٧، وينظر التبيان فى البيان للطيبى، ت د/ عبد الستار زمـــوط، ص٤٨٥، دار الجيل بيروت، والمطول، ت د/ عبد الحميد هنداوى، ص٤٩٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١) ينظر: الثعالبى، يتيمة الدهر، جـــ١، ص٢٤٩.

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـــ١، ص٩٢، والبيت للمتنبى وشطره الثانى (ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا .

(٣) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـــ١، ص٩٣.

استدرارا لعطف الممدوح ورفقه، فحياتهم بدون رضا الممدوح لا قيمة لها؛ لأنها حياة رعب لا أمن، وشتات لا استقرار، والإضافة فى (حياتهم) قصد بها الاستعطاف والحث على الرفق بالمخطئين والعفو عنهم.

ولك أن تلمح ما يوحى به الإسناد المجازى بين (غضبت) وضمير الحياة، وكيف أن حياتهم تنبذهم فلا تألفهم، وتبغضهم فلا تحبهم، وتغضب عليهم فلا تصفو لهم، وهم كذلك لا يكادون يسيغون تلك الحياة ولا يتقبلونها، ولا يشعرون لها بحلاوة، ثم ارتقى المتنبى فى وصف حياة بنى كلاب فى ظل غضب الممدوح عليهم، فحياتهم غضبت عليهم ولم تألفهم وسرعان ما هجرتهم ونبذتهم، وهجر حياتهم لهم أعظم عقاب لهم على ما ارتكبوه من معاداة الممدوح، ثم انظر إلى إضافة الهجر للحياة وما فيه من تجسيم للحياة، وكيف أنها ضاقت بأصحابها فقلتهم، وغضبت عليهم فهجرتهم، تلك هى حياة بنى كلاب يعرضها المتنبى أمام الممدوح، فى مقام طلب العفو عنهم والرفق بهم.

٢٤ــ وما جهلت أياديك البوادى ولكن ربما خفى الصواب

الجهل: ضدّ العلم والبوادى: جمع بادية، وهى: ضدّ الحاضرة[١]، والأيادى: قد يراد بها النعم والعطايا مجازا مرسلا بعلاقة السببية؛ لأن اليد سبب فى إيصال النعمة للمحتاجين، وعلى هذا فالمتنبى يحث الممدوح على بذل العفو والرفق لهؤلاء الجناة، لأن الممدوح كريم، والكريم يجود بالعفو والصفح كما يجود بالعطاء والهبات.

---

(١)مختار الصحاح: مادة (بدا)، ص٤٥.

وقد يراد بالأيادى: القدرة والسلطان، مجازا مرسل أيضا بعلاقة السببية، لأن اليد سبب فى ظهور سلطان القدرة من بطش وغيره، وعلى هذا فالمتنبى يمزج طلب العفو بالمدح، فكأنه يقول: إنك إذا رفقت ببنى كلاب وعفوت عنهم فإن عفوك هذا عن مقدرة، وسلطان، وهيبة عرفتها البوادى وسارت بذكرها الركبان، ومهما يكن من أمر فإن مجىء الشاعر بـــ (الأيادى) فى صيغة الجمع يشير إلى أن عطايا الممدوح كثيرة ومتنوعة، ونعمه عظيمة فى الحواضر والبوادى، وكذا سلطانه وقدرته لهما وجوه شتى، ومظاهر متنوعة، لا تجهلها البوادى، فضلا عن الحواضر.

ولننظر إلى هذا الإسناد المجازى، حيث أسند الشاعر الجهل المنفى (وما جهلت) إلى البوادى، والمراد أهل البوادى، ويفيد هذا الإسناد المبالغة فى عطاءات الممدوح، ونعمه وهباته، وقوة سلطانه ونفاذ أمره، حتى إن العلم بتلك الصفات لم يقتصر على العقلاء ممن يصح منهم العلم بل تخطاهم إلى الجمادات، فها هى ذى البوادى على علم تام بكرم الممدوح وقوة سلطانه، والعلم لا يقتصر على بادية واحدة، بل البوادى كلها علمت بذلك، وإذا كانت البوادى البعيدة لا تجهل كرم الممدوح وقوة سلطانه، فالحواضر من باب أولى، وهذا هو سرّ ذكر البوادى دون الحواضر، وفى تقديم المفعول (أياديك) على الفاعل (البوادى) مزيد اهتمام بالمقدم الذى هو سبب تلك الشهرة.

وعجز البيت: (ولكن ربما خفى الصواب) يشير إلى أن الصواب قد يخفى، وهذا ينطبق تماما على بنى كلاب، فمع أن نعم الممدوح وقوة

سلطانه علمت بها البوادى والحواضر إلا أن هذا الأمر المشهور الذى لا تجهله الجمادات قد خفى على بنى كلاب، فمن شدة الظهور الخفاء، يقول العكبرى: " قوله: (ولكن ربما خفى الصواب) من أحسن ما قيل، وهو من إعجاز نبوته التى أعجزت غيره"[١].

٢٥ــ وكم ذنب مولده دلال وكم بعد مولده اقتراب

٢٦ــ وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

(كم) فى شطرى البيت تفيد التكثير، أى: كثير من الذنوب يكون سببها وأصلها ومنبعها من الدلال، والدلال: ما يكون بين المحبين، يقال: أَدَلّ عليه وتدلل: انبسط، وأَدَلّ عليه: وثق بمحبته فأفرط عليه، وفى المثل: أَدَلّ فَأمّل، والدَّالَّة: على من لك عنده منزلة، وَدَلُّ المرأة ودلالها: تدللها على زوجها، وذلك أن تريه جرأة عليه فى تغنُّج وتشكُّل، كأنها تخالفه وليس بها خلاف، وفلان يُدِلُّ عليك بصحبته إدلالاً وَدَلالاً، أى: يجترئ عليك[٢]، وهذا اعتذار لطيف من المتنبى، فكأنه يقول: إن جرأتهم عليك سببها حبك وانبساطك لهم، وثقتهم فى أنك لا تعاقبهم وأملهم فى أنك لا تؤاخذهم؛ لأن ذنبهم مبعثه الدلال، كأنهم يخالفونك وليس بهم خلاف، وكذلك بعدهم عنك وهروبهم إنما نشأ من قربهم منك، أى: إن قربهم وأملهم جرأهم على المعصية؛ أملا فى عدم المؤاخذة، فلما تبعتهم وطلبتهم فروا وابتعدوا؛ خشية منك لا عصيانا لك، يقول العكبرى: "الذنب يتولد

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٣.

(٢) لسان العرب: مادة (دلل)، جـ٢، ص١٤١٣.

من الدلال، والبعد يأتى من القرب؛ وذلك أن صاحب الذنب يأتى بذنب وهو يظنه دلالاً، وقد يكون بُعدٌ سببه القرب، وهو من أحسن الأشياء، وهو حكمة من أحسن الكلام، وقد جمع فيه معانى"[١].

وقوله: (وجرم) معطوف على (ذنب)، والتقدير: وكم جرم، أو مجرور بربّ المقدرة، اى: وربَّ جرم، والجرم: الذنب، والمتنبى يتلطف فى التماس أعذار يستدر بها عطف الممدوح على بنى كلاب، فها هو ذا ينسب ذلك الذنب وتلك المعصية إلى سفهاء القوم، وهم قلة دفعهم دلالهم إلى الاجتراء على الممدوح، فحل العقاب على غيرهم من بقية القوم، وفى تقديم الجار والمجرور (بغير جارمه) على الفاعل (العقاب) لفت للممدوح إلى هؤلاء الذين لم يذنبوا؛ حتى يكونوا محل اهتمامه ورفقه وعفوه، فكما تسبب السفهاء فى حلول العقاب، فليتسبب من لم يجرم فى حلول الرفق والإحسان، يقول العكبرى: "يريد: كم جرم أو رب جرم جناه سفيه فنزل العذاب بغيره، وهذا من أحسن الكلام والحكمة، وهو منقول من قوله ــ تعالى ــ : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٣.

خاصة)[١]، وقال الحجاج[٢]: (والله لآخذن المحسن بالمسىء، والطائع بالعاصى"[٣].

ومما يؤخذ على المتنبى فى هذا البيت أن جعل السفهاء المتسببين فى العذاب بمنآى عن العذاب، وأن العقاب قد حلّ بغيرهم ممن لم يجرموا، وهذا قصور فى تأدية المعنى المراد؛ لأن غزو سيف الدولة إنما كان لجميع بنى كلاب من أذنب ومن لم يذنب، فالعقاب شمل الجميع.

وقد قال الجرجانى معلقا على هذا البيت: "كأنما اقتبسه[٤] من قوله ــ تعالى ــ :(أتهلكنا بما فعل السفهاء منا)"[٥]، والمعنى فى الآية: أتهلكنا جميعا سفهاء وغير سفاء بفعل السفهاء منا، فالاستفهام للاستعطاف[٦]، وتعميم العقاب فى مقام التحذير واضح فى قوله ــ تعالى ــ : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)، وفى قول زياد بن أبيه: (لأخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر والمطيع

---

(١) الأنفال: ٢٥.

(٢) القول لزياد بن أبيه من خطبة قالها فى العراق منها: "وإنى أقسم بالله لأخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: (انج سعد فقد هلك سعيد)، أو تستقيم لى قناتكم" ينظر أحمد زكى صفوت، جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة، جـ٢، ص٢٧٢، المكتبة العلمية، بيروت.

(٣) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٤.

(٤) الاقتباس: أن يُوشِّح الكلام بشىء من القرآن أو الحديث أو الفقه لا على أنه منه، ينظر: الطيبى: التبيان فى البيان، ص ، المطول: ص٧٢٣.

(٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه، ت /هاشم الشاذلى، ص٢٥٥، والآية ٢٥٥، من سورة الأعراف.

(٦) ينظر: القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، جـ٧، ص٢٩٥، دار الكتاب العربى، القاهرة، الرازى: مفاتيح الغيب، جـ٧، ص٣٠٠، دار الغد العربى، القاهرة، سيد قطب، فى ظلال القرآن، جـ٣، ص١٣٧٧، دار الشروق، بيروت.

بالعاصى)، فكان على المتنبى أن يجعل العذاب واقعا على الجميع كما حدث فعلا ، ومثل النماذج التى اقتبس منها.

ويؤخذ أيضا على المتنبى فى هذا البيت الإتيان بهذه الألفاظ: (جرم ــ جره ــ جارمه)، فتكرار الجيم، والراء ، والميم، ألحق بالبيت ثقلا خفيفا، ــ ولكنه على كل حال ــ يخرجه عن دائرة الفصاحة.

٢٧ــ فإن هابوا بجرمهم عليا فقد يرجو عليا من يهاب

يقول: إن سيف الدولة مهيب جواد، وأن بنى كلاب إذا كانوا بجرمهم خافوا (عليا) وهو سيف الدولة، فإنه يُرجَى العفو عنده كما يُهاب، ويلحظ فى هذا البيت أن الشاعر لا يزال يلتمس الأعذار لبنى كلاب، فهو يقول: إن خروجهم وفرارهم منك إنما كان بسبب هيبتهم لك، ويؤخذ على المتنبى إدخاله (إن) التى تفيد الشك فى وقوع هيبة بنى كلاب لسيف الدولة، ولو عبر بــ (إذا) دون (إن) لكان أولى وأبلغ فى الاستعطاف[١]. لأن هيبة بنى كلاب لسيف الدولة بسبب جرمهم أمر محقق الوقوع، أو هكذا يجب أن يكون ، وهذا الشرط المقطوع بحصوله تناسبه من أدوات الشرط (إذا)، والمقام يقتضى أن يقول: فإذا هابوا بجرمهم عليا.....؛ لأن هذا أبلغ فى مقام التلطف وطلب العفو وبخاصة من ملك لا تجهل أياديه البوادى.

٢٨ــ وإن يك سيف دولة غير قيس فمنه جلود قيس والثياب

---

(١) هذا مبنى على قول البلاغيين: إن (إذا) تستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه، أو يظن ظنا قويّا وقوعه، أما (إن) فتستعمل فى الشرط غير المقطوع بوقوعه، ينظر: فى هذا الإيضاح، جـ١، ص١٨٦، وشروح التلخيص: جـ١، ص

يعدد المتنبى فضائل الممدوح على بنى كلاب، ويعاتبهم فيقول: إن كان سيف الدولة لغير دولتهم فهو ولى نعمتهم، فجلودهم نبتت من إنعامه، واكتست من خِلَعِه، فإن لم يكن له عليهم حقّ الطاعة بالسلطان فله عليهم حق الطاعة بسبب نعمه التى نبتوا فيها، وترعرعوا فى ظلالها.

وقد دل الشاعر باستعماله (إن) على أن خروجهم عن دائرة سلطانه ومحيط نفوذه نادرا ما يقع، ومن هنا فله عليهم حق السلطان وحق النعمة، وفى لفظة (الجلود) مجاز مرسل علاقته الجزئية، إذ المراد: أن أبدانهم نبتت واكتملت من نعم الممدوح وعطاياه، وقد أبدع المتنبى فى اختيار الجزء المعبر عن الأبدان هنا وهو: الجلود؛ فالجلود وهى الشىء الظاهر من البدن أصدق دليل على رغد العيش وتمام النعمة ورضا النفس وخلوها من الأسقام والأوجاع، فالبشرة الناعمة والوجوه الناضرة دالة على سلامة البدن ورضا العيشة وهناءتها، فإذا ما اكتست تلك الجلود الناعمة والوجوه الناضرة حلل الثياب الفاخرة دلّ ذلك على رغد العيش وطيبه، وكثرة أيادى الممدوح ونعمه.

٢٩ــ وتحت ربابه نبتوا وأثُّوا وفى أيامه كثروا وطابوا

٣٠ــ وتحت لوائه ضربوا الأعادى وذلّ لهم من العرب الصعاب

الرباب: السحاب الذى تراه دون السحاب الأعلى، ويكون أبيض أو أسود[١]، وأثُّوا: تقووا وكثروا، يقال: أثّ النبات إذا كثر والتف[١]، ولا يخفى ما فى هذه الكلمة من غرابة تخل بالفصاحة.

---

(١) لسان العرب: مادة (ربب)، جـ٣، ص١٥٤٨.

والمتنبى هنا يتابع تعداد نعم الممدوح على بنى كلاب، فقد نشأوا وتربوا فى نعمه، وكثروا وتقووا بإحسانه، كالنبات يقوى ويكثر بالماء، وقد استعار الشاعر السحاب للإحسان، واستعار للمحسن إليهم النبات، ولعلك تلمح شدة الترابط بين النبات والماء، فلا حياة لنبات بدون ماء، وهذا ينعكس بدوره على المستعار له وهو تعلق بنى كلاب بالممدوح تعلق المحتاج بالمعطى؛ لأن منه جلودهم وثيابهم، والاستعارة هنا تمثيلية، حيث شبه حال بنى كلاب، وقد نشأوا وتربوا فى نعمة الممدوح، وكثروا وتقووا بأياديه، بحال النبات يقوى عوده، وتترعرع أغصانه، وتكثر ثماره بالماء، بجامع تعلق شىء بشىء للحصول على الفائدة، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه.

وبنسبتهم إليه قهروا الأعادى، وانقاد لهم من العرب ما لا ينقاد لأحد، كل هذا بفضل نسبتهم إلى الممدوح، وإحسانه إليهم.

٣١ــ ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شموسهم ضباب

يقول لو غير الأمير غزا كلابا منعه عن شموسهم ضباب، ولفظ (شموس) مستعار للنساء، والضباب مستعار للغبار، بجامع حجب الرؤية فى كل، والمقصود: لو غير الأمير أراد غزو بنى كلاب منعه من الوصول إلى حريمهم نقع خيل تسد الأفق...، وفى استعارة الشموس للنساء ما يشير إلى أنهن بعيدات عن ساحة القتال بعد الشمس عن الأرض، فلا فزع ولا خطر عليهن، فهن فى أمن وأمان، يحجبهن عن العدو نقع خيول تصول

---

(١) لسان العرب: مادة (أثث)، جـ١، ص٢٤.

وتجول وغبار فرسان تطاعن العدو، وفى هذا تهوين وتقليل من شأن من يغزوهم غير الممدوح، لأن هذا الغازى لن يستطيع التوغل فى أرضهم والاقتراب من حُرَمِهم، يقول العكبرى: "كنى بالشموس عن النساء، وبالضباب عن الدفع عنهن؛ لأن الضباب يستر الشمس ويحول عن النظر إليها"(١)

والضباب: ندى كالغبار يغشى الأرض، وهو البخار المتصاعد من الأرض يصير كالظلمة تحجب الأبصار لظلمتها(٢)، وفى هذا إشارة إلى أن عزة بنى كلاب من عزة الأمير، ومنعتهم من منعة الممدوح، ولو أن أحدا أراد أن يغزوهم لحال جيش الممدوح دون ذلك؛ لأنهم العشائر والصحاب، فلا يستطيع العدو أن يصل إلى نسائهم، لأنه سيجد دونهم خيلا نقعها يحجب الرؤية.

ويقول الواحدى: "يجوز أن يكون هذا مثلا معناه: لو غزاهم غيره لكان له ما يشغله بما يلقى قبل الوصول إليهم، ومعناه: أنه يستقبله من قليلهم ما يمنعه من الوصول إلى الذين هم أكثر منهم، فجعل الضباب مثلا للرعاع، والشموس مثلا للسادات"(٣)، وعلى هذا فالكلام فيه إشارة إلى قوة بنى كلاب ومنعتهم، وأنه لو أحد أراد أن يغزوهم لم يستطع الوصول إلى سادة القوم ووجهائهم؛ لأن الرعاع سيمنعون ذلك؛ لقوتهم وكثرتهم، وتلك القوة إنما تستعصى على غير الممدوح.

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٥.
(٢) لسان العرب: مادة (ضبب)، جـ٤، ض٢٥٤٤.
(٣) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٥.

ولك أن تلمح دقة الشاعر فى الإتيان بـــ (لو) الشرطية، دون (إذا)، أو (إن)؛ لأن الشاعر يفترض غزو غير الأمير لبنى كلاب افتراضا، ليرتب عليه ما أراد من إظهار قوة الممدوح وعشائره من بنى كلاب التى تمنع المعتدى من تحقيق مراده، و(لو) هى الأنسب فى هذا المقام، لأنها فى الأصل تكون للشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط وانتفاء الجزاء، فهى موضوعة للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشئ عن امتناع الشرط[١]

٣٢ــ ولاقى دون ثأيهم طعانا		يلاقى عنده الذئبَ الغراب

الثّأىُ والثَّأَى: الإفساد كله، وقيل: هى الجراحات والقتل ونحوه من الإفساد، وأثأَى فيهم: قتل وجرح، والثَّأوَة: الشاة المهزولة من الغنم[٢]، ولا يخفى ما فى هذا اللفظ من غرابة وثقل يخل بفصاحته.

وقد عطف الشاعر: (ولاقى دون ثأيهم طعانا) على (ثناه)، يريد: لو غزاهم غيره لثناه عنهم ضباب، أى: قتال، ولاقى دون الوصول إلى الإفساد بأرضهم، أو غنم شاة مهزولة من أغنامهم (طعاناً)، وتنكير الطعان يفيد التكثير، أى: طعانا كثيرا بدليل تلاقى الغراب والذئب واجتماعهما على لحوم القتلى، واجتماع الغراب والذئب كناية عن استشراء القتل فى العدو وكثرته، وفى هذا ما فيه من المبالغة فى كثرة

---

(١) ينظر: ابن هشام: مغنى البيب، ت محمد محى الدين عبد الحميد، جـــ١، ص٢٥٦، التفتازانى: المطـــول، ت / الدكتور عبد الحميد هنداوى، ص٣٣٣.

(٢) لسان العرب: مادة (ثأى)، جـــ١، ص٤٦٧.

القتلى من العدو، فهو إبراز للدعوى بالدليل والحجة والبرهان، وأعظم الأدلة على الفتك بالعدو اجتماع الكواسر بأنواعها عليهم، فهم وليمة سائغة للطيور الجارحة والوحوش الضارية، وقد جسد أسلوب الكناية تلك المقتلة، فقد أرانا سباعاً تتصارع، وطيورا تتبارى على اقتناص نصيبها.

وإذا كان هذا حال المعتدى عندما يصل إلى مرابض غنمهم ومبارك إبلهم فلا يستطيع أن يفسد بأرضهم، أو يقتل أو يجرح، ولا يستطيع الحصول على شاة هزيلة، بل يصبح وليمة شهية للقاصى والدانى من الذئاب الضارية والطيور الجارحة، إذا كان حاله هكذا فكيف له بالوصول إلى شموسهم، واستباحة حُرماتهم؟!

٣٣ــ وخيلا تغتذى ريح الموامى ويكفيها من الماء السَّراب

وخيلا تغتذى: معطوف على (طعانا)، أى: لو غير الأمير غزا كلابا لثناه عن شموسهم ضباب، ولاقى طعانا، ولاقى خيلا، والواو لمطلق الجمع بين المتعاطفين، فلا ينظر فيها إلى ترتيب ولا تعقيب[١]، فالأصل أن يقال: ولاقى خيلا وطعانا، لأن لقاء الخيل أسبق من الطعان، لكن إن كانت الخيل التى عُطفت على الطعان خيل مدد، فالترتيب طبعى، وهو أليق بالمعنى المراد، وهو المبالغة فى قوة بنى كلاب المستمدة من قوة أميرهم سيف الدولة الحمدانى، فمتى حلّ بهم عدو لاقى دونهم جيشا تمده من بعده جيوش تجعله وليمة للسباع الفاتكة والطيور العتيقة.

---

(١) ينظر: مغنى اللبيب، جـ٢، ص٣٥٤.

وفى تنكير (خيلا) ما يشير إلى كثرتها وتتابعها، وقد وُصفت الخيل بجملتين: الأولى، (تغتذى ريح الموامى)، والموامى: جمع مَومَاة، وهى: المفازة الواسعة، وقيل: هى الفلاة التى لا ماء بها ولا أنيس[١]، ولا يخفى ما فى هذه اللفظة من غرابة، والجملة الثانية: (ويكفيها من الماء السراب)، والسراب: ما يُرى فى الصحراء كالماء ولا ماء، والمراد: أن العدو يلاقى طعانا " وخيلا عرابا مضمرة قد تعودت قطع المفاوز على غير علف وماء، حتى كأن غذاءها الريح وماءها السراب، وقوله: (من الماء السراب) أى: بدلا منه، إذا رأت مثل لون الماء اكتفت به"[٢].

٣٤ــ ولكن ربهم أسرى إليهم فما نفع الوقوف ولا الذهاب

٣٥ــ ولا ليل أجن ولا نهار ولا خيل حملن ولا ركاب

يستدرك المتنبى من مَنَعَة بنى كلاب وقوتهم ما لو غزاهم ربهم، والرب فى اللغة يطلق: على المالك، والسيد، والمدبر، والمربى، والقيِّم، والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله ــ عز وجل ــ وإذا أُطلق على غيره أُضيف[٣] كما قال المتنبى: (ربهم)، أى: سيدهم المطاع، والإضافة هنا قصد بها الاستعطاف والحث على الشفقة ببنى كلاب الذين شقوا عصا الطاعة فحاربهم الممدوح ونكل بهم وأذاقهم الذل والهوان، وفى وصفه بأنه (ربهم) التماس لعفوه ورفقه؛ لأنه سيدهم وولى نعمتهم ومربيهم.

---

(١) لسان العرب: مادة (موم)، جـــ٦، ص٤٣٠١.

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـــ١، ص٩٦.

(٣) لسان العرب: مادة (ربب)، جـــ٣، ص١٥٤٦.

و(أسرى)، يقال فى الليل: أسرى، وفى النهار: سرى، والمراد: أن الممدوح لما قصدهم لم ينفعهم الفرار؛ لأنهم أُدركوا، ولم يكن الوقوف لينفعهم؛ لأنهم لو وقفوا لقتلوا ـــ كما قال ـــ :

وما تركوك معصية ولكن يخاف الورد والموت الشراب

ولعلك تلمح مدى دقة الشاعر فى الجمع بين الوقوف والذهاب، وهذا الجمع يبرز مدى قدرة الممدوح على بنى كلاب، فهو الذى يستطيع أن يقتلهم لو وقفوا لمواجهته، ويستطيع أن يدركهم لو فروا هاربين، وليست هناك حالة ثالثة، ومن هنا فالطباق[1]: أفاد استيعاب أحوالهم عندما يقصدهم الممدوح، هذا فضلا عن الإشادة بقدرة الممدوح وهيبته.

وقد استوعب الطباق أيضا حالتى الزمن من ليل ونهار، فالليل لم يسترهم، وكذلك النهار لم يساعدهم على الهرب، ولا خيل حملتهم ولا إبل أقلتهم، فهم لهيبته متحيرون، والكلام مبنى على الحذف المتناسب مع ضيق المقام المترتب على تحيُّر بنى كلاب عندما قصدهم الممدوح، والأصل: ولا ليل أجنهم، ولا نهار نجوا فيه، ولا خيل حملتهم ولا ركاب أقلتهم، وفى هذا ما فيه من المبالغة فى قوة الممدوح وحيرة وارتباك بنى كلاب، فالليل الذى من شأنه أن يستر ما سترهم، والنهار الذى من شأنه العون على الفرار ما أعانهم على النجاة، والخيل والركاب التى من شأنها

---

(١) الطباق هو: الجمع بين المتضادين فى كلام واحد، ينظر: تحرير التحبير، ص١١، والإيضاح: جـــ٤، ص٤، شروح التلخيص، جـــ٤، ص٢٨٩ د/ الشحات محمد أبو ستيت، دراسات منهجية فى علم البديع: ص٣٣، د/ أحمد محمد على (عبده زايد): دراسات فى علم البديع، ص١٤.

أن تحمل وتسرع ما حملت، وكأن الجميع تمالأ مع الممدوح ضد بنى كلاب.

٣٦ــ رميتهم ببحر من حديد له فى البر خلفهم عباب

العباب: المطر الكثير، وعباب السيل: مُعظَمُه، وارتفاعه، وكثرته، وقيل: عُبابه: موجه[١]، يصور المتنبى جيش الممدوح المتتبع لبنى كلاب فى كثرته وقوته، وكيف أنه أثار الرعب فى قلوبهم فما نفعهم الفرار ولا المواجهة، ولا ليل سترهم ولا نهار نجوا فيه، ولا خيل حملتهم ولا ركاب أسرعت بهم، وقد استعار المتنبى البحر للجيش، بجامع القوة والكثرة، وهذا البحر (من حديد)، والحديد يتلاءم مع الجيش الذى يلبس الحديد، ويحمل السيوف والرماح وأدوات الحرب، وقوله: (له فى البر خلفهم عباب)، أى: أمواج، وهذا يناسب المستعار منه، وذاك التصوير الاستعارى، يوحى بأن هذا الجيش لا يمكن صدُّه أو مواجهته، إلا إذا أمكن مواجهة بحر من حديد.

وفى ملائم المستعار منه (عباب) استعارة أُخرى، حيث شبه حركة سير الجيش المتدفقة خلف بنى كلاب بموج البحر، وهذه الاستعارة قد أصابت موقعا حسنا دقيقا؛ لأنها تكتمل بها الصورة، فكون الجيش بحرا من حديد لا يعنى جمود أفراده وثبوتهم دون حركة، وهذا ما قد يفهم من مجرد استعارة البحر مقيداُ بقوله: (من حديد)[٢].

---

(١) لسان العرب: مادة (عبب)، جـ٤، ص٢٧٧٤.

(٢) ينظر: د/ الوصيف هلال الوصيف، التصوير البيانى فى شعر المتنبى، ص٣٣٨.

٣٧ــ فمساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب

ظاهر البيت يدل على أن بنى كلاب كانوا يفترشون بسط الحرير عندما فاجأهم سيف الدولة ليلاً، فما أتى عليهم الصباح إلا وقد افترشوا بسط التراب، وهذا الظاهر ليس مرادا، وإنما المراد: أن سيف الدولة ببطشه وشدة بأسه تمكن منهم، وحطم سلطانهم، وقضى على ما كانوا يتمتعون به من مظاهر السيادة والترف، فتبدلت أحوالهم من النعيم والعزة والسيادة إلى البؤس والذلة والمهانة، فقوله: (وبسطهم حرير) كناية عن العزة والنعيم، وقوله: (وبسطهم تراب) كناية عن الذلة والفقر الذى صاروا إليه[١].

والعلاقة بين المكنى به والمكنى عنه هنا هى التلازم الذى يرجع إلى العرف والعادة، فمن عادة الثرى العزيز أن يفترش الحرير، ومن عادة الذليل الفقير أن يفترش التراب[٢]، والعرف هو الذى يربط بين بسط الحرير وحياة النعيم والسيادة، فى حين يدل الالتصاق بالتراب على التعاسة والذل.

وقرينة الكناية[٣] لا تمنع من إرادة المعنى الأصلى، ومن هنا فليس هناك ما يمنع من إرادة المعنى الأصلى مع المعنى الكنائى المراد فى بيت

---

(١)ينظر: د/ شفيع السيد: التعبير البيانى، ص٢١٠، د/ فضل حسن عباس: أساليب البيان، ص٣٤٠، دار النفائس، عمان.

(٢) د/ بسيونى فيود: علم البيان، ص٢٤٣.

(٣)يقول عبد القاهر: "الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"، دلائل الإعجاز،

المتنبى، ومن هنا قال ابن جنى: "قتلهم فتزملوا بالتراب بعدما كانت بسطهم حرير"[١]، وإن كان ابن جنّى قد جعل قوله: (وبسطهم تراب) كناية عن قتلهم، وقد شرح العكبرى البيت بمعناه الأصلى فقال: "يريد أنه لما أتاهم فى المساء وهم على بسط الحرير آمنون قتلهم، فأصبحوا قتلى على الأرض وَفُرُشهم التراب عوضا عن الحرير، وقال الخطيب وابو العلاء: نهبهم فلم يترك لهم شيئا يقعدون عليه سوى التراب"[٢].

والفاء فى مطلع البيت تدل على سرعة انقضاض جيش الممدوح عليهم فما أن قصدهم حتى أدركهم، والمقابلة بين (مساهم وبسطهم حرير)، وبين (صبحهم وبسطهم تراب) تشير إلى سرعة الانقضاض عليهم والانتهاء منهم، فسرعان ما تحولوا من عزِّ النعمة إلى ذلِّ الفاقة.

٣٨ــ ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

استعان المتنبى أيضا فى هذا البيت بأُسلوب الكناية، فكنى فى الشطر الأول بقوله: (ومن فى كفه منهم قناة): عن الرجل، وكنى فى الشطر الثانى بقوله: (كمن فى كفه منهم خضاب): عن المرأة، والعلاقة بين المعنى الكنائى الذى استخدم فيه اللفظ، والمعنى الأصلى هو التلازم بين المعنيين، وهذا التلازم مصدره العرف والعادة، فقد استقر العرف على أن الرجل هو الذى يحمل السيف حتى أصبح ذلك من خصوصياته، وكذلك استقر

ص١٠٥، ويقول الخطيب: "الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ" الإيضاح: جـــ٣، ص١٥٦.، وينظر: شروح التلخيص، جـ٣، ص

(١) الفسر شرح ابن جنى الكبير على ديوان المتنبى: جـ١، ص٢٨٧.

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٧.

العرف على أن المرأة هى التى تتجمل وتتزين، ومن مظاهر جمالها وزينتها صبغ يديها بالخضاب[١].

وانظر إلى التشبيه فى البيت، حيث شبه المتنبى القوم وقد خذلوا حتى صار رجالهم كنسائهم ذلا وضعفا وانقيادا، ولك أن تنظر فى المشبه به (المرأة)، وما توحى به صورتها فى مقام الهزيمة من ضعف وخوف ورعب وصراخ وفرار وذل، وانعكاس ذلك بنفس القدر على المشبه (الرجل)، يقول البرقوقى: "صار الرجال كالنساء ذلاً واستخذاءً وانقياداً"[٢].

٣٩ــ بنو قتلى أبيك بأرض نجد ومن أبقى وأبقته الحراب

الحراب: جمع حَرَبَة، وهى الآلة دون الرمح[٣]، والمعنى: "أن أبا الهيجاء والد سيف الدولة قتل من كلاب فى حرب، وذلك أنه لما هم بالحج وقع بهم فى أرض نجد، فاقتتل معهم، فجعل أبو الطيب الظفر له، وقال قوم: كان الظفر لبنى كلاب"[٤].

والمتنبى رفع (بنو قتلى)، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: هم بنو قتلى أبيك..، وقد ذكر الشيخ عبد القاهر أن "من المواضع التى يطرد فيها حذف المبتدأ (القطع والاستئناف) يبدءون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا

---

(١) ينظر: د/ شفيع السيد: التعبير البيانى، ص٢١٠، د/ بسيونى فيود: علم البيان، ص٢٤٣.

(٢) حـ١،ص٢١٣.

(٣) لسان العرب: مادة (حرب)، جـ٢، ص٨١٦.

(٤) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٧.

ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ"[١]، وتبدو دقة الحذف هنا وفضله على الذكر، إذ إن تقدير المحذوف والنظر إليه يُعدّ تكلفا ويذهب بمزية الحذف ويُضَيِّع رونقه، يقول عبد القاهر: "تكلف أن ترد ما حذف الشاعر، وأن تُخرجه إلى لفظك وتوقعه فى سمعك، فإنك تعلم أن الذى قلتُ كما قلتُ، وأن ربَّ حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد"[٢].

والمتنبى عندما حذف المبتدأ فى مقام التقليل من شأن بنى كلاب؛ التماسا للعفو عنهم فإن "سرَّ الحذف عندئذ هو رغبة الشاعر فى تميُّز هذه المعانى وظهورها صنوفا متباينة وألوانا مختلفة وأجناسا متغايرة، وحذف المبتدأ أو طيُّه فى تلك الجمل المستأنفة يحقق هذه الرغبة إذ يجعل الجمل المستأنفة مستقلة بمعانيها غير مرتبطة بما قبلها...، وشىء آخر وراء حذف المسند إليه فى هذا المقام، وهو أنه ينبئ بمدى انفعال الشاعر وامتلاء نفسه بتلك المعانى فيفيض بها صنوفا مختلفة وألوانا متميزة"[٣].

٤٠ــ عفا عنهم وأعتقهم صغارا		وفى أعناق أكثرهم سخاب

السخاب: قلادة تُتَّخَذ من قَرَنفُل وسُكٍّ ومَحلَب ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شىء تلبسها الصبيان والجوارى[٤].

يقول: "إن أباك قتل آباءهم وعفا عن الأبناء فأعتقهم وهم صغار يلبسون السخاب فعاشوا عتقاء سيفه"[٥].

---

(١) دلائل الإعجاز: ص١٤٧.
(٢) دلائل الإعجاز: ص١٥١.
(٣) د/ بسيونى فيود: علم المعانى، جـ١، ص٩٨، ٩٩.
(٤) لسان العرب: مادة (سخب)، جـ٣، ص١٩٦١.
(٥) عبد الرحمن البرقوقى، شرح ديوان المتنبى، جـ١، ص٢١٤.

٤١ــ وكلكم أتى مأتى أبيه		وكل فعال كلكم عُجاب

لفظ (كل) المضاف إلى كاف الخطاب قد اجتلب لإفادة الشمول، وفيه تأكيد على إتيان الجميع مأتى أبيهم، والكلام فيه تشبيه محذوف الأداة، وفى الحقيقة هما تشبيهان أُدمجا فى صورة تشبيهية واحدة، فقد شبه فعل بنى كلاب من الخروج على سيف الدولة، بفعل آبائهم وخروجهم على أبى الهيجاء والد سيف الدولة، ووجه الشبه هو الخطأ والحماقة فى كل، وشبه فعل الممدوح ببنى كلاب بفعل أبيه بآبائهم، والصفة الجامعة هى: العفو والإحسان فى كل.

وهذا تلطف من الشاعر فى طلب العفو لبنى كلاب، فبما أنه أدمج التشبيهين وربط فعل بنى كلاب بفعل آبائهم، وربط فعل الممدوح بفعل أبيه بآبائهم، فكأنه يقول له: سر على نهج أبيك ، فكما عفا وأحسن فى الآباء مع إساءتهم فليكن عفوك كعفوه وإحسانك مثل إحسانه، فإذا ما فعلت فى الأبناء مثل فعل أبيك فى الآباء كانت أحوالكم وأفعالكم من العجب الذى تهوى سماعه الأسماع وتسير بذكره الركبان.

يقول العكبرى: "كلكم فعل فعال أبيه فهم فى الخطأ كآبائهم، وأنت فى العفو كأبيك، وفعلهم عجب: كيف عصوك ولم يعتبروا بآبائهم؟، وفعلك أنت أيضا عجب فى المن عليهم والإبقاء لهم"[١].

وإذا كان الشاعر قد أصاب فى الإتيان بهذا المعنى، وتصويره والتعبير عنه، فإنه مما يؤخذ عليه كثرة الإضافات فى الشطر الثانى فى قوله:

---

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٧.

(وكل فعال كلكم) مما أدى إلى الثقل فى النطق، وكذلك الإتيان بهذه الألفاظ: (وكلكم ــ وكل ــ كلكم)، وبخاصة فى الشطر الثانى، فهذا التكرار قد ألحق بالبيت ثقلا خفيفا، لكنه على كل حال يخرجه عن دائرة الفصاحة، وقد ذكر الثعالبى هذا البيت ضمن الأبيات التى فيها مآخذ على أبى الطيب، وجعله تحت عنوان: (تكرار اللفظ فى البيت الواحد من غير تحسين)[١].

٤٢ــ كذا فليسر من طلب الأعادى ومثل سراك فليكن الطلاب

المعنى: "مثل هذا الفعل فليفعل من يطلب الأعادى، وليكن طلابه مثل هذا السرى"[٢].

وقوله: (كذا) فى موضع نصب بقوله: (فليسر)، لأنه مفعول مقدم، وتقديمه يفيد الاختصاص، و(ذا): اسم إشارة مشار به إلى الأحداث التى دارت بين الممدوح وبنى كلاب الذين شقوا عليه عصا الطاعة فحاربهم ونكَّل بهم، وسامهم الذل والهوان، والكاف أداة تشبيه.

والأمر فى قوله: (فليسر من طلب الأعادى) أريد به النصح والإرشاد؛ لأن النصيحة المتضمنة لم تكن على جهة الإلزام وإنما هى نصح وإرشاد لمن أراد أن يسير إلى عدوه ويتملكه، فمن أراد ذلك فليكن سيره مثل سير الممدوح، وفعله مثل فعله، ونلحظ فى تلك النصيحة انبهار

---

(١) يتيمة الدهر: جـ١، ص٢٠٥، ٢٠٩.

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، جـ١، ص٩٧.

المتنبى بقوة الممدوح،وهيبة سلطانه، وقضائه على عدوه فى وقت يسير، حتى جعل فعله مثلا يضرب وفعلا يحتذى.

وتقديم المفعول: (كذا) على (فليسر من طلب الأعادى) أفاد قصر السير فى طلب الأعادى على اسم الإشارة المشار به إلى سير الممدوح فى طلب بنى كلاب الذين خرجوا عليه فنكل بهم وأذلهم، وما دام سيره قد أتى بتلك النتيجة فهو السير الذى يُحتذى، ومن هنا صح للشاعر أن يجعله مشبها به اكتملت فيه صفة الإتيان على العدو وإذلاله والتنكيل به، وقويت حتى صحّ جعله أصلا يُلحق به أىُّ سير آخر.

والصورة التشبيهية التى أتى بها المتنبى فى آخر قصيدته: (كذا فليسر من طلب الأعادى)، نهج فريد لم يعهد فى الشعر العربى؛ ذلك لأن الناظر فى هذا التشبيه يرى أداة التشبيه (الكاف) قد أتت عقب جمل من الكلام لها معنى قد أدته، فدخلت أداة التشبيه على اسم الإشارة (ذا) المشار به إلى مجموع تلك الجمل باعتبار المعانى التى أدّتها، فكان اسم الإشارة مشبها به ملحوظا فيه معانى تلك الجمل، وأتى بعد ذلك المشبه: (فليسر من طلب الأعادى)، والمعهود أن المشبه رتبته التقديم على المشبه به، وعلى الكاف.

ولعل السر فى تقديم المشبه به هنا ــ إضافة إلى التخصيص ــ أن المشبه به لم يستقل بالمعنى؛ لأنه مشار به إلى معانى الجمل التى سبقته؛ فقدم لتقديمها، ولعل البدء بأداة التشبيه هنا موليا لها المشبه به تشعر باتصال

الكلام، أما لو بدئ بالمشبه (فليسر من طلب الأعادى) لتوهم زوال ذلك الاتصال[١].

والشطر الثانى من البيت مبنى على تقديم الخبر: (ومثل سراك) على قوله: (فليكن الطلاب)، والتقديم أفاد الاختصاص ، حيث قصر الشاعر: طلب من يقصد الأعادى على مثل سُرَى الممدوح وطلبه لأعدائه، والأمر فى قوله: (فليكن) أُريد به النصح والإرشاد، فمن يريد أن يظفر بعدوِّه فليسر مثل هذا السُّرى.

(١) ينظر: د/ عبد العظيم المطعنى، خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية، جـ٢، ص٢٩١.

التعليق الختامى على القصيدة

تمثل هذه القصيدة بنية واحدة تتعدد فيها الأجزاء ولكن فى إطار واحد مطرد ونظام، واحد متسق، وغرض واحد ملتئم، إنها إيقاعات متعددة تعطيك نغما واحدا متسقا، أو ألوان مختلفة تعطيك لوحة واحدة منسجمة.

غرض القصيدة العام هو الاستعطاف لبنى كلاب، والإشادة بشجاعة سيف الدولة وكريم خصاله، وفى داخل هذا الإطار الكلى توزعت أجزاء القصيدة توزعا ينحو نحو التوحد المنسجم، ولا ينحو نحو الاستقلال المتنافر، وقد مزج المتنبى بين مدح سيف الدولة واستعطافه لبنى كلاب مزجا متلائما ما تخال غيره بقادر عليه.

ووصولا إلى هذا التوحد المنسجم جاءت المعالجة الخاصة من المتنبى للمعانى، وقد جاءت معالجته متدثرة بإهاب الإطار الكلى للقصيدة، ولم يخرج عن هذا الإطار قط، وفى معالجته اختار من المفردات أقدرها على الوصول به إلى غرضه، وشكل من الصور ما يخدم إطار القصيدة الكلى.

عنوان القصيدة:

اختار المتنبى عنوانا دقيقا لقصيدته عبر عنه بقوله: (الرفق بالجانى عتاب)، ثم أتى بهذا العنوان فى بيت من أبيات القصيدة:

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجانى عتاب

وهذا العنوان الذى اختاره المتنبى هو مفتاح المعانى التى أراد أن يوصلها إلى مخاطبه، وهو يدل على دقة المتنبى فى اختيار ألفاظه وانتقاء عباراته فهو

لم يضع عنوانا جزافا ، وإنما اختار عنوانا يعبر تعبيرا دقيقا عن هدفه وما يصبو إليه من الاستعطاف لبنى كلاب، وقد ذكر الثعالبى أن هذا العنوان: (الرفق بالجانى عتاب) ضمن حكم المتنبى التى جرت مجرى الأمثال، والتى هى من المحاسن والروائع والقلائد والفرائد التى زاد فيها على من تقدم وسبق جميع من تأخر(١).

فالرفق بالجانى عتاب شديد، وعقاب أليم، للأحرار من الناس، وبنو كلاب عشائر الممدوح وأصحابه، فهم كرام الناس، والرفق بهم أشد عليهم من القتل، وانظر كيف جعلهم جناة، أى: يستحقون العقاب، والعقاب أهون عليهم من العتاب، ثم إنه يطلب من الأمير العفو عنهم والرفق بهم، وهذا فعل الأمراء الأبطال الشجعان الكرام، فكما يمنون بالهبات والنعم، يمنون بالعفو والرفق، وقد عقب الثعالبى على هذه المقطوعة الشعرية التى آخرها هذا البيت بقوله: "هذا كلام ما لحسنه غاية"(٢).

مطلع القصيدة

بدأ المتنبى قصيدته بمدح سيف الدولة والإشادة بشجاعته، وهذا المطلع يتناسب تمام التناسب مع غرض الاستعطاف؛ لأن العطف والعفو فى أبهى صوره إنما يكون عن مقدرة، ومن هنا فقد افتتح المتنبى قصيدته بهذا المطلع المشيد بشجاعة الممدوح:

بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب

---

(١) ينظر: يتيمة الدهر، جـ١، ص٢١٧، ٢٤٥، ٢٤٩.

(٢) يتيمة الدهر: جـ١، ص٤٨.

ويبدو من هذا المطلع أن المتنبى انتقى ألفاظا عزبة خالية من الثقل والتنافر، وأن هذه الألفاظ سلكت فى نظم لا تعقيد فيه ولا تنافر، بل فيه حشد من ألوان البيان فى أجمل نظم وأحسنه، فلفظ (غير) أريد به الكناية عما أضيف إليه ومن هنا لزم تقديمه، والجار والمجرور متبوعا بالحال (راعيا) قدم على الفعل والفاعل (عبث الذئاب) وهذا التقديم مما يتحقق به التأكيد والتقوية التى هى غرض المتنبى من مدحه، والثائرين من بنى كلاب استعار لهم لفظ (الذئاب)، والممدوح شبه تارة بالراعى الذى لا تعبث الذئاب برعيته، وتارة بالصارم الذى لا يثلم من كثرة الضراب...، وقد أتى هذا النظم بمعنى صحيح مطابق لمقتضى الحال، فالمقام هو الاستعطاف، والاستعطاف يستدعى الإشادة بقوة الممدوح وشجاعته، وتشبيهه بالراعى الذى لا تعبث الذئاب برعيته، والصارم الذى لا يثلم على كثرة الضراب، والكريم الذى يجود بالعفو كما يجود بالهبات.

والإتيان بهذه الألفاظ العذبة، وذاك النظم الجيد وتلك المعانى الصحيحة المطابقة لمقتضى الحال، هو ما يسمى عند البلاغيين بحسن الابتداء الذى حقه حسن اللفظ وعذوبته، وجودة السبك ودقته، وصحة المعنى وسلامته، يقول الخطيب: "ينبغى للمتكلم أن يتأنق فى ثلاثة مواضع من كلامه حتى تكون أعذب لفظا، وأحسن سبكا، وأصح معنى..، الأول: الابتداء لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان كما ذكرنا أقبل

السامع على الكلام فوعى جميعه، وإن كان بخلاف ذلك اعرض عنه ورفضه وإن كان فى غاية الحسن"[١].

وشاعرنا تأنق فى مطلع قصيدته تلك، وشهد له الثعالبى فقال فى مطالعه: "وأول المحاسن والروائع، والبدائع والقلائد والفرائد التى زاد فيها على من تقدم وسبق جميع من تأخر: حسن المطالع"[٢]، وقال ابن رشيق: "وهذا النوع، اعنى: جودة الابتداء من أجلّ محاسن أبى الطيب، وأشرف مآثر شعره إذا ذكر الشعر"[٣].

ويلحظ أن هذا المطلع الحسن المطابق لمقتضى الحال قد ناسب المقصود من القصيدة؛ لأن فيه إشارة إلى قوة سلطان الممدوح، وشدة مضائه، ونفاذ عزيمته، وكل ذلك مشعر بالمقصود من القصيدة، وهو الاستعطاف لبنى كلاب، والرفق بهم، والعفو عنهم؛ لأن هذا إنما يُحمد إذا صدر عن قدرة الممدوح وهيبة سلطانه، ونفاذ عزيمته، وكون الابتداء مشعرا بالمقصود مناسبا له يسمى عند البلاغيين بـــ (براعة الاستهلال)[٤].

ولسائل أن يسأل: لماذا افتتح المتنبى قصيدته بالمدح فبدأ بوصف شجاعة الممدوح ولم يبدأ بالغزل كعادة الشعراء؟ والإجابة على هذا السؤال تأتى على لسان ابن الأثير حيث يقول: "يجب على الشاعر إذا

---

(١) الإيضاح بتعليق/ عبد المتعال الصعيدى، جـ٤، ص١٤٨، وينظر: المطول، بتحقيق د/ هنداوى،ص٧٣٤.

(٢) يتيمة الدهر: جـ١، ص٢١٧.

(٣) العمدة: جـ١، ص٢٢٢.

(٤) ينظر: الإيضاح، جـ٤، ص١٥١، المطول: بتعليق د/ هنداوى، ص٧٣٥، تحرير التحبير: ص١٦٨.

نظم قصيدة أن ينظر: فإذا كانت مديحا صرفا لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها...، وأما إذا كان القصيد فى حادثة من الحوادث كفتح معقل، أو هزيمة جيش، أو غير ذلك فإنه لا ينبغى أن يبدأ فيها بغزل وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام فى مواضعه...؛ لأن الغزل رقّة محضة، والألفاظ التى تنظم فى الحوادث المشار إليها من فحل الكلام ومتين القول، وهى ضدُّ الغزل، وأيضاً فإن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال فى تلك الحوادث والابتداء بالخوض فى ذكرها لا الابتداء بالغزل، إذ المهم واجب التقديم"[١].

عاطفة الشاعر:

يراد بالعاطفة: نزوع الشاعر إلِى موضوع أو فكرة أو مشاهدة تؤثر فيه تأثيرا قويا يدفعه إلى التعبير عن مشاعره ، والإفصاح عما يجرى بخواطره[٢]، وإذا تأملت أبيات هذه القصيدة، بل كل ما قاله الشاعر فى مدح سيف الدولة ستشعر بصدق العاطفة، ويحدثك الانفعال الذى تثيره فى نفسك تلك القصيدة بأن ما صدر عن الشاعر إنما هو صادر من القلب، لقد أعجب المتنبى بسيف الدولة، وخالط حبه شغاف قلبه، ومن هنا كان مستوى شعره ملائما لصدق عاطفته.

---

(١) المثل السائر: جـ٣، ص٩٦، ٩٧.

(٢) ينظر: د/ محمد كامل الفقى، من عيون الأدب، ص١٨.

لقد نبعت تلك العاطفة من قلب المتنبى وتدفقت من وجدانه، وكان سببها الإعجاب بشخصية الممدوح؛ فمدح المتنبى لسيف الدولة لم يكن لغرض التكسب بالشعر وأكل الخبز من قوافيه ومعانيه، وإنما صدر عن حب صادق، فقد وجد المتنبى "آماله فى آمال سيف الدولة، وآراءه فى آرائه، وعواطفه فى عواطفه، فألقى فى مدح الرجل كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه، وألغى ذكر نفسه، وراح يمدح الرجل ويصفه، ويصف حروبه وغزواته بأبدع ما أتى به من البيان"(١)، ولقد كان سيف الدولة من ذوى الطموح، والمتطلعين إلى تحقيق الآمال العريضة، ولعل المتنبى فى عاطفته الصادقة نحو سيف الدولة كان يشبع رغبة فى نفسه؛ لأنه كان من أولئك الذين لا حدّ لطموحهم، ولا غاية لآمالهم.

الأسلوب :

لا شك فى أن أسلوب تلك القصيدة قوى واضح القوة، ويتجلى ذلك فى كل بيت منها، فعباراتها جزلة رصينة تناسب الغرض، وتجانس الأفكار، وقد اختار الشاعر لكل فكرة ما يلائمها من الألفاظ، فعند الإشادة بقوة سيف الدولة وشجاعته أتى المتنبى بمثل هذه الألفاظ: (راعيا ــ صارما ــ المولى ــ غرتك...)، وعند وصف المعركة أتى بمثل هذه الألفاظ: (الجيش ــ العقاب ــ صم العوالى ــ الجماجم ــ الرقاب ــ الحديد...)، وعند الاستعطاف قال: (ترفق ــ عتاب ــ عبيدك ــ خضاب ــ سخاب...)، وهكذا وضع الشاعر لكل فكرة ما يناسبها من

---

(١) ينظر: المتنبى، ص٣١٥ــ٣٢٧.

الألفاظ، ووضع كل لفظة فى المكان الذى توحى فيه بما يناسب المقصود، ويعبر عن المضمون.

وعندما نتأمل أسلوب القصيدة نرى أنه جمع بين الأساليب الخبرية والإنشائية بحسب مقتضى الحال، غير أن الأسلوب الخبرى كان هو الغالب على القصيدة، وقد قصد منه فى معظم الأحوال، المدح والإشادة بطولات الممدوح، ولعل الميل إلى الإكثار من الأسلوب الخبرى راجع إلى أنه الأنسب لمثل هذا الموقف الذى يقفه المتنبى ليمدح، ويصف، ويستعطف عن طريق عرض المشاهد وسرد الصفات، كما أن الشاعر أعطى كل معنى ما يلائمه؛ ولذلك نراه قد عمد إلى التقديم فأكثر منه، تأمل قوله:

بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب

حيث قدم الجار والمجرور مضافا إلى كاف الخطاب متبوعا بالحال: (بغيرك راعيا) على الفعل والفاعل: (عبث الذئاب)، وكما فعل فى الشطر الأول فعل فى الشطر الثانى، وفى سياق الاستفهام قدم المفعول على الفاعل: (فكيف تحوز أنفسها كلاب؟)، وفى سياق التشبيه: (كما نفضت جناحيها العقاب)...إلى غير ذلك من صور التقديم الواضحة فى القصيدة؛ ولعل السر فى كثرة التقديم يرجع إلى مقام المدح والاستعطاف، فالرجل يمدح سيف الدولة، ويدلل على سموِّ صفاته وكريم أخلاقه، وأسلوب التقديم من خصائصه التخصيص، فهو يخص الممدوح بالشجاعة والقوة، وكريم الأخلاق، ويقصر ذلك عليه وحده دون غيره، أضف إلى ذلك أن المتنبى

يقدم من أجزاء الجملة الجزء الأهم الذى يدور عليه الحديث، ويكون هو المقصود الأول والأهم من الكلام.

الخيال:

أما الخيال فى القصيدة فقد جاء صافيا يصور المعانى ويوضح الأفكار، وقد تنوعت فيه الصور بين واقعية مستمدة من مشاهدة الشاعر لأحداث الممدوح مع بنى كلاب، وبين خيالية من تشبيه واستعارة وكناية، فمن التشبيه: تشبيه الممدوح تارة بالراعى (بغيرك راعيا...)، وتارة بالسيف: (وغيرك صارما...)، وكتشبيه حركة الجيش واضطرابه بحركة نفض العقاب لجناحيه...، إلى غير ذلك من التشبيهات الجميلة التى تبرز المعنى وتوضحه.

وقد كثر المجاز بأنواعه فى القصيدة، فرأينا السحاب يخاف، والفلوات تُسأل، والبوادى لا تجهل أيادى الممدوح، وجاءت الكناية بوفرة فى القصيدة مثل قوله:

فمساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب

ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

إلى غير ذلك من الصور البيانية التى حفلت بها القصيدة، وساعدت على توضيح المعنى وتأكيده فى الذهن.

هذا: وقد قلت فى القصيدة المحسنات البديعية، لأن المتنبى لم يكن من شعراء الصنعة؛ ولذا فإن ما جاء فى القصيدة من ألوان البديع كان حسن الوقع؛ لأنه غير مقصود، وليس متكلفا، كالطباق بين (ميامنهم — ومياسرهم) فى قوله:

وعمرو فى ميامنهم عُمُورٌ وكعب فى مياسرهم كعاب

وكالمقابلة فى قوله:

فمساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب

إلى غير ذلك من المحسنات التى ازدانت بها ألفاظ القصيدة ومعانيها.

ختام القصيدة:

يقول ابن رشيق: "وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها فى الأسماع، وسبيله أن يكون محكما لا تمكن الزيادة عليه، ولا يتأتى بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه، وقد أربى أبو الطيب على كل شاعر فى جودة فصول هذا الباب الثلاثة"(١).

وكما ذكر ابن رشيق، فقد أحكم المتنبى ختام قصيدته إحكاما لا تمكن الزيادة عليه، فبيته الأخير الذى يقول فيه:

كذا فليسر من طلب الأعادى ومثل سراك فليكن الطلاب

يشعر وينبئ بانتهاء الكلام، فطلبه ممن يريد أن يقصد عدوه أن يفعل مثل فعل الممدوح، وأن يكون طلبه لعدوه مثل طِلاب الأمير يشعر بانتهاء الكلام، وينبئ بختام القصيدة، وهذا ما سماه البلاغيون بـــ (بحسن الانتهاء)(٢).

وقد اجتهد المتنبى فى اختيار نهاية لقصيدته، فاختار لها أصح المعانى، وكساها بأعذب الألفاظ، وسلكها فى أحكم نظم ، وإن شئت فانظر إلى

---

(١) العمدة: جـــ١، ص٢٣٩، ويقصد بالفصول الثلاثة: (المبدأ، والتخلص، والنهاية).

(٢)ينظر: الإيضاح: جـــ٤، ص١٥٧، والمطول د/ هنداوى، ص٧٤٠.

كاف التشبيه، وكيف أنها لم تدخل على المشبه به، وإنما دخلت على اسم الإشارة (ذا) المشار به إلى جميع المعانى التى ساقها الشاعر قبل البيت الأخير، ثم انظر إلى تقديم المشبه به على المشبه، ثم انظر إلى الأمر فى (فليسر)، ثم انظر فى الشطر الثانى، وكيف أنه جعل سُرى الممدوح مثلا يُحتذى، وطريقا يُتّبع، ومسلكا ينهج لمن أراد أن يأتى على عدوّه ويظفر به.

وبهذا الاجتهاد يكون المتنبى قد أحسن ختام قصيدته وأحكم نهايتها، وحقق ما ذكره ابن أبى الأصبع حين قال: "يجب على الشاعر أو الناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى فى الأسماع؛ ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام فى غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد فى رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها"[١] ، هذا ويؤخذ على الشاعر غلوه المردود فى بيته الثانى:

وتملك أنفس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفسها كلاب

فقد وصف الممدوح بأنه يملك أنفس الثقلين جميعا، وهذا الوصف لا يليق ولا ينطبق إلا على الله ــ عز وجل ــ ، يقول الدكتور/ محمد كامل الفقى فى مبالغات المتنبى: "وكم كان له من مبالغات يأباها الشرع وتتجاوز حدود الإسلام"[٢].

---

(١) تحرير التحبير: ص٦١٦.

(٢) من عيون الأدب: ص٤٠.

ــ له بعض الكلمات الغريبة التى لا يظهر معناها بداية، وإنما تحتاج فى معرفتها إلى النظر والتنقيب عنها فى كتب اللغة المبسوطة، مثل كلمة: (أثوا) فى قوله:

وتحت ربابه نبتوا وأثُّوا وفى أيامه كثروا وطابوا

وهى من أثَّ النبات: إذا قوى والتف، أى: إنهم نشأوا وكثروا وتقووا، كالنبات الذى ينموا ويكثر ويقوى ويثمر بالماء.

ومثل كلمة: (ثأيهم) فى قوله:

ولاقى دون ثأيهم طعانا يلاقى عنده الذئبَ الغراب

وهى جمع ثأية، وهى مأوى الإبل والغنم حول البيوت، ولا يخفى ما فى هاتين الكلمتين من غرابة وثقل على اللسان.

ــ له بعض الأبيات التى فيها ثقل خفيف نتيجة تأليفها من كلمات تكررت بعض حروفها، مثل قوله:

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

وقوله:

وكلكم أتى مأتى أبيه وكل فعال كلكم عجاب

فتكرار لفظ: (جرم ــ جرّه ــ جارمه) فى البيت الأول، وتكرار لفظ: (وكلكم ــ كلّ ــ كلكم) فى البيت الثانى أضفى على البيتين ثقلا خفيفا، لكنه على كل حال مخل بفصاحة الكلام.

وفى الختام أتوجه إلى الله ــ سبحانه ــ أن يكتب لهذا البحث التوفيق والقبول إنه سميع الدعاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د/ إبراهيم حسن أحمد

المصادر والمراجع

١ــ أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم: د/ بسيونى فيود، رسالة دكتوراه مخطوطة فى مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة، تحت رقم ٢٠٣٢,

٢ــ أساليب البيان: د/ فضل حسن عباس، ط/ أولى، دار النفائس، عمان، ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م.

٣ــ أسرار البلاغة: للشيخ/عبد القاهر الجرجانى، تحقيق الأستاذ/ محمود شاكر، الطبعة الأولى، دار المدنى، جدة، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م.

٤ــ الإعجاز البلاغى: د/ محمد أبو موسى، ط أولى، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٤م.

٥ــ الإيضاح شرح تلخيص المفتاح:الخطيب القزوينى، بتعليق/ عبد المتعال الصعيدى، الطبعة الخامسة، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

٦ــ البلاغة الواضحة: على الجارم ومصطفى أمين، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٧ــ التبيان فى البيان: للطيبى، ت د/ عبد الستار زموط، ط/ أولى، دار الجيل بيروت، ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م.

٨ــ التبيان فى شرح الديوان، العكبرى: تحقيق، د/ كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م.

٩ــ تحرير التحبير: لابن أبى الإصبع المصري، تحقيق د/ حفنى شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.

١٠ــ التصوير البيانى فى شعر المتنبى: د/ الهلال الوصيف الهــلال، ط أولى، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٤٢٦هـــ ــ ٢٠٠٦م.
١١ــ التعبير البيانى رؤية بلاغية نقدية: د/ شفيع السيد، الطبعة الخامســة، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٤هـــ ــ ٢٠٠٣م.
١٢ــ الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى، دار الكتــاب العــربى، القــاهرة، ١٣٨٧هـــ ــ ١٩٦٧م.
١٣ــ جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة: للأستاذ/ أحمد زكــى صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.
١٤ــ خصائص التراكيب: د/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٠هـــ ــ ١٩٨٠م.
١٥ــ خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية: د/ عبد العظــيم المطعــنى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣هـــ ــ ١٩٩٢م.
١٦ــ دراسات فى علم البديع: د/ أحمد محمد على (عبده زايــد)، الطبعــة الأولى، مطبعة الأمانة، ١٤٠٦هـــ ــ ١٩٨٦م، بدون ناشر.
١٧ــ دراسات منهجية فى علم البديع: د/ الشحات محمد أبو ستيت، الطبعة الأولى، دار خفاجى للطباعة والنشر، قليوبية، ١٤١٤هـــ ــ ١٩٩٤م،
١٨ــ دلائل الإعجاز: للشيخ/ عبد القاهر الجرجانى، تحقيق الشيخ/ محمــود شاكر، مطبعة الخانجى.
١٩ــ دلالات التراكيب: د/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية، مكتبة وهبــة، القاهرة، ١٤٠٨هـــ ــ ١٩٨٧م.
٢٠ــ ديوان المتنبى: المكتبة الثقافية، بيروت.

٢١ــ: شرح ديوان أبى الطيب المتنبى: لعبد الرحمن البرقوقى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م.

٢٢ــ شروح التلخيص: لسعد الدين التفتازانى وآخرين، دار السرور، بيروت.

٢٣ــ علم البيان: د/ بسيونى عبد الفتاح فيود، طبعة أولى، مطبعة السعادة، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م، بدون ناشر.

٢٤ــ علم المعانى: د/ بسيونى عبد الفتاح فيود، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م، بدون ناشر.

٢٥ــ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيروانى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت، ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.

٢٦ــ الفسر شرح ابن جنى الكبير على ديوان المتنبى: لأبى الفتح عثمان ابن جنِّى، تحقيق د/ رضا رجب، ط أولى، دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٤م.

٢٧ــ فى ظلال القرآن: لسيد قطب، الطبعة الثانية عشرة، دار الشروق، بيروت١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م.

٢٨ــ الكشاف: لمحمود بن عمر الزمخشرى، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.

٢٩ــ ، لزوميات أبى العلاء المعرى، د/ إبراهيم الخولى، الطبعة الثانية، دار الأدب الإسلامى، القاهرة، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م.

٣٠ــ لسان العرب: لابن منظور، تحقيق/ الأساتذة: عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلى ، دار المعارف، القاهرة.

٣١ــ لسان الميزان: لابن حجر العسقلانى، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٣٢٩هـ.

٣٢ــ المتنبى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، للأستاذ/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى، نشر مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

٣٣ــ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين بن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوفى، د/ بدوى طبانة، الطبعة الثانية، نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٤ــ مجمع الأمثال للميدانى، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ــ ١٩٨٧م

٣٥ــ مختار الصحاح: للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، ترتيب/ محمود خاطر، دار الفكر، بيروت.

٣٦ــ المطول: لسعد الدين التفتازانى، ت د/ عبد الحميد هنداوى، ط/ أولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م.

٣٧ــ مغنى اللبيب: لابن هشام: ت محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة/ محمد على صبيح، القاهرة.

٣٨ــ مفاتيح الغيب: للرازى، طبعة أولى، دار الغد العربى، القاهرة، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م.

٣٩ــ من عيون الأدب: د/ محمد كامل الفقى، الطبعة الثانية، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة،١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م.

٤٠ــ من قضايا البلاغة والنقد: للدكتور/ عبد العظيم المطعنى، طبعة أولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٢م.

٤١ــ الموازنة بين الشعراء ــ أبحاث فى أصول النقد وأسرار البيان ــ: لزكى مبارك، الطبعة الثالثة، مصطفى الحلبى، مصر، ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م.

٤٢ــ الوافى بالوفيات: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى: تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، وتركى مصطفى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م.

٤٣ــ الوساطة بين المتنبى وخصومه: للقاضى/ على بن عبد العزيز الجرجانى، ت /هاشم الشاذلى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى، القاهرة، بدون تاريخ.

٤٤ــ وفيات الأعيان: لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٤٥ــ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر:لأبى منصور عبد الملك الثعالبى، تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.